سلسلة القصة العربية المعاصرة (127)

مقبرةٌ على حافَّةِ الحلمِ

8 قصص قصيرة

جمال الجزيري

دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني

سلسلة القصة العربية المعاصرة (127)

سلسلة تصدر عن دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني

المؤلف: جمال الجزيري

العنوان: مقبرةٌ على حافة الحلم: 8 قصص قصيرة

التصنيف: قصص قصيرة [قصة، أدب عربي معاصر، فن السرد]

الطبعة الأولى: فبراير 2016

تصميم الغلاف: المبدع محمود الرجبي

تصميم الكتاب ومراجعته لغويا: د. جمال الجزيري

الناشر: دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني

دار نشر إلكترونية مجانية لا تهدف للربح

للمراسلة لنشر أعمالكم في السلاسل المختلفة التي تصدرها الدار، الرجاء قراءة التعريف بمجموعة دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني لمعرفة مواصفات تجهيز الملف:

https://www.facebook.com/groups/Ketabat.Jadidah.Ebook.Publishers/

وإرسال الملف وفقا لشروط النشر على إيميل د. جمال الجزيري أو على الخاص في صفحته على الفيسبوك:

elgezeery@gmail.com

https://www.facebook.com/gamal.elgezeery

إشارة

كُتبتْ قصص هذه المجموعة في الفترة 2006-2013

مَجْمَعُ المطرِ

كنتُ كأنني في بلدتنا، لكن لم يكن هناك أي أثر للحقول ولا الخضرة ولا لبيتنا القديم ولا الجديد، ما أسميه "بيتنا" مجازا، لأنني مهاجرٌ ولأنني مُهَجَّرٌ ولأنهم سامحهم الله.

في البلدة كنتُ كأنني لي بيت قديم ومتهالك فيما يشبه حارة شعبية قديمة جدا في القاهرة، له سلالم من الطوب وأظن أنه ليست له أعمدة، وكانت هذه السلالم متعرجة، وربما عندما أصل إلى أعلى السطح أجد أنني بإمكاني أن أعبر إلى بيت آخر، وهكذا.

ولكنني لم أكن في بيتي في ذلك الوقت، وكان بيتي مجرد صورة في رأسي، فأول لقطة ظهرتُ فيها كانت تريني نفسي كأنني استأجرتُ أو اشتريتُ بيتا آخر لأبي الميت، وكان لديَّ إحساس أو تصور ساعتها أن أبي لن يرتاح في البيت الذي أسكن فيه. وكنتُ كأنني أرعى أبي أو أتكفَّل بشئونه.

وتكررت اللقطة مرة أخرى، لقطة الاستئجار أو الشراء، واحتمال أن أبي لن يرتاح، مع تغيُّر بسيط وهو أن أبي وراحته في هذا البيت ربما ترجع إلى أن هذا البيت أكثر قِدَمًا، وكنتُ أجهِّز له الدور الأرضي كأنه لا يستطيع أن يصعد السلم، وبالتالي لا بد أن تكون كل احتياجاته متوفرة في الدور الأول بالرغم من أنني أدرك في الصورة أنه لا يوجد في البيت أحد غيره وأنا الوحيد الذي أجيئ يوميا لأقضي له احتياجاته. ولم استغرب "أجيئ يوميا" بالرغم من أن هذا أول مشهد وكنا ندخل البيت لأول مرة.

لم تكن أمي تظهر في الصورة بالرغم من أنني أدرك أنها على قيد الحياة – رزقها الله الصحة والعافية وطول العمر – وأنها تعيش في تلك البلدة وأنها كانت تقف بجانب أبي كظله في سنوات مرضه قبل وفاته وترعى جميع شئونه.

كان أبي بصحة أفضل بكثير عن حالته قبل وفاته، وكان البيت الذي استأجرتُه أو اشتريتُه له في الجزء القديم من البلدة، ذلك الجزء الذي رأيته في صورة أخرى أو رؤيا

أو منام في يوم غير ذلك اليوم كأن شارعه صاعد لأعلى ليصل بعد نهاية البيوت إلى ساحة واسعة لا أدري إن كنا نخرج إليها – من نحن؟ لا أذكر، لكنني كنتُ أخرج إليها مع.... من؟ لا أذكر أيضا – كمجموعة من الشباب، من الأهل، من الأصدقاء، من الجيران، أو تجمع من هذا القبيل.

وكان لهذه الساحة الجبلية أو الصخرية سور – وهذا مخالف لجغرافيا البلدة تماما – من الأسوار القديمة مثل مجرى العيون أو القلعة أو أسوار القلاع التي لم أرَها ولكنني أتخيلها، ربما في الأفلام، وربما في روايات القرن السابع عشر أو الثامن عشر.

وخلف هذا السور أو بعد هذه الساحة – لو تتبعنا وصعدنا لأعلى – انحدار خفيف، وبدلا من الصحراء أو المقابر أو السوق وبعده المقابر في نهاية البلدة قبل أن تضيق على أهلها ويعقدوا صداقة مع الصحراء حتى تحن عليهم بما يختبئ في رحمها من وعود النبت، بدلا من ذلك كله كان هناك الكثير من الحدائق أو البساتين، وكأنها ليست ملكا

لأحد، أو كأنها ملك لأشخاص ولكنهم يتركون الجزء القريب من البلدة كملكية عامة يتنزه فيها من يشاء، يأكل من فاكهتها من يريد، يستظل بها من يطلب الهواء والظل بعيدا عن الشمس أو ضيق البيوت، بالرغم من أنني أدرك الآن أن البيت الذي صار سكنا لأبي كان من البيوت القديمة التي لا تمتص الحرارة، وتسمح بترطيب الهواء وبقدر من الحميمية بين جدرانه.

لم أستطع أن أحدد معنى ما أرى، لكنني تخيَّلتُ أبي في هذا البيت الذي يبعد عن البيت الذي يُفتَرَض أنني أسكن فيه، وبيته أكثر قربا من تلك البساتين على الطريق الصاعد نحو الساحة ونحو البساتين.

كنتُ أجلس بجانب أبي أناوله طعاما أو أقرِّب له كوب ماء أو أرشُّ له بعض الماء على الأرض، ولا أدري لماذا، فالهواء في البيت كان رطبا لا يحمل جفافا خانقا ولا أتربة، وبالتالي لم يكن رش الماء لإبعاد ذرات التراب، فالأرضية كانت عبارة عن طينٍ جافٍّ.

وأثناء جلوسي مع أبي كنتُ كأنني جالس في حديقة من تلك الحدائق وكأنها أصبحت لي أو لنا، من نحن؟ هل أنا وأبي؟ أم أنا وأبي وأمي؟ أم أنا وأبي وأمي وأخواتي وإخوتي؟ لا أدري. لكنني كنتُ أحس بأنها ملكُنا.

رأيتُ شجرة التين أو قطفتُ منها. قلتُ: ربما كان لذلك علاقة بشجرة التين التي كان يرقد تحتها أبي قبل وفاته. وفي نفس الوقت تخيَّلتُ أنني سأجد شجرة الزيتون بعد شجرة التين مباشرة، ولكنني لم أجدها. وجدتُني أقطف من شجرة رمان، وكانت بجانبها شجرة ليمون أيضا. هل قطفتُ منها أم لا؟ لكنني كنتُ أحس بأنني أجلس تحت أو وسط أشجاري المفضلة.

كانت الأشجار في رؤيا سابقة مليئة بثمار لا أذكرها، وكنتُ أقطف منها وكأننا نخرج جميعا في رحلة للصيد، وبدلا من أن نصطاد الأسماكَ، نصطاد الثمار العجيبة والعادية، ما نعرفه منها وما لا نعرفه.

ولم أحس بالضياع، بل أحسستُ بأنني أتنقل بين الأماكن، بين الأزمنة، بين بداية القصة ونهايتها، بين قصيدة بلا موسيقى كأغنية عذبة تخرج من صدرٍ يليق بها، يحس بها، يستطيع أن يوصل إليك الإحساسَ بها.

لا أدري لماذا اجتمع بيتُ أبي وذلك البراحُ الذي به البساتين، وكأنني سأعود إلى تلك المدافن في قصة سابقة أو لاحقة، أو ربما في نفس القصة ونحن نُحيي ذكرى وفاة ابن خالي وذكرى وفاة نجيب محفوظ[1] التي أدرك أنها ذكرى ميلاده، وكأن الميلاد والوفاة، كأن الأب والابن، الأستاذ وقارئه، يلتقيان في نقطة لا تعرف إلى أين تنتسب، وكأن كلا منهما يُخرج شعاعا لا ينفذ إلى الآخر ليمحيه، بل تلتقي الأشعة في نقطة وسطى كأنها مَجْمَعُ المطر وخلاصة العصائر.

22 ديسمبر 2013

[1] انظر روايتي "طيور تكتم أنفاسها".

حركةٌ في الحقولِ

كالكائن الأعرج، يطل من شرفة على الخواء، يتأمل رجله المكسورة المصلوبة على أعواد قشٍّ عُشٍّ لم يقربه منقار آخر منذ أن حرقه فوران رأسه ذات يوم.

- كأن أحدا كان هنا

يقولها محاولا أن يستقيم على رجله الأخرى كي يعيد ترتيب أعواد العُشِّ التي نثرتها مناقير هبّت ذات انفجارِ فَخٍّ لتستولي على ما كانا جمعاه من حَبٍّ. تعود إلى أنفه رائحة أليفة كأن حرارة جسمها مازالت تدب في فراغ العش حوله. تتخلل الرائحة رأسه فيبرد فوران البركان الذي كان، أو أنه يهدأ من جراء البرد والسلام اللذين استجابا لما بدأ يطرأ عليه، فطغيا على كل شيء آخر، وأرديا البركان لعبة بارت مع مرور الوقت.

لم يكن يظن أن بإمكانه العودة إلى سلامه أو التخلص من نظرته التي عرجت. لكنه الآن يدرك أنه مازال كما هو، لا ينقصه شيء، بل إن تأمله أكسبه قوة وأبصره ما لم

يلاحظه من قبل. أدرك نفسه في كامل امتلائها، وأنه ما عليه إلا أن يعدّل نظرته فتستوي الحياة أمام ناظريه، كما هي دائما، مليئة بالوعود التي بإمكانه أن يساعدها على التحقق.

وكأن ترتيب أعواد العش رتّب حياته من جديد، فها هو يخرج لأول مرة من عشه، متناسيا باب الشرفة الذي أُغْلِقَ للأبد في وجهه ووجه رفاقه، وفَصَلَهم عن الاتِّصال بحياة أخرى بالداخل، باب كان بإمكانه أن يفتح مشاريع الحميمية والدفء. لكن سكان الدار فضلوا العزلة وحياتهم المنغلقة، واكتفوا بتحنيط نسر رافعا جناحيه في براح الصالة رمزا لحُرِّيَّةٍ لم تكن له إلا عندما كان شامخا في أعالي النسيم.

يحسُّ بدفقة الحياة في منقاره عندما يعاند انكسار رجله ويخرج من فوهة العش. يُصرُّ على أن يعاود الإمساك بتلابيب الحياة المتشتِّتة في ذرَّات النسيم، فلا تملك شيئا حيال إصراره وتنصاع له كأن مشروع قانون مرَّ في مجلس الشعب يخوِّل له امتلاك كل شيء.

- لا بأس مادام الأمر مجرد تشبيه

يقولها مسلِّما بتقاطع جوانب اللغة والحالات.

- لا بأس

ويواصل الإمساك بكل ما كان قد ضيعه بُركانُه أو أَجَّلَه. يريد أن يكتب برجله المكسورة سيمفونية الحركة، أن يحوّل مسرحية عبثية كانت تستولي على رقعة نظره إلى مسرحية مفعمة بالحياة والوعود. تعانده العصافير المتكاسلة على حواف الشرفة، العصافير التي تتجاهل الإشراق وكأنه لا يعنيها في شيء، وكأنه لا يخاطبها أو يستجوبها أو يستحثها للنهوض لتنال نصيبا من رزق الطير في هذا الصباح الباسم.

عندما ينظر من الشرفة، تفزعه آثار الدمار هنا وهناك، وكأنَّ حربا عالمية ثالثة اندلعت أثناء انغلاقه داخل عُشِّه. لكنه لا يسمح للانكسار بمعاودة الاستيلاء عليه عندما يبصر الأعضاء البشرية المتناثرة في الجوار أو أسطح المنازل المحترقة أو نظرات الوجوه المستسلمة. تعاوده أغاني قديمة عن النصر والوطن الأكبر والأمَّة، لكنه سرعان ما يدرك أن

هذه الأفكار لا تختلف كثيرا عن أرض الميعاد، فيفكِّر في ضفر أغنية فردية تتغنى بالإرادة والمستقبل والحياة، إرادة الجميع ومستقبلهم وحياتهم، مع التركيز على نفسه، لأنه هو الوحيد الذي بإمكانه أن يُخرج إمكاناته إلى براح الحياة.

يبثُّ نظرته في آذان الطيور. لكنهم ينظرون له نظرةً متسوِّلةً، كمن تطلب حَبًّا وماء، وهو لا يدري طعم الحب، ولا رقص الماء في الليالي الشتوية في الميدان – لكن لا وقت يبقى اليوم على حافة الشرفة. يصرخ في وجوههم:

- شرفة الدار أُغلقت، فلا تنسوا الحقول المترامية في تلك الأرجاء.

لا يرى تحركا ولا دبيبا، وكأنه يبثُّ بشارته بحروف لا يفقهها القوم أو أن آذانهم مجلس أمن لا يسمع إلا ما كان قد خطّه بعيدا عن أي سياق. فينظر للطيور في شفقة أو أسى، لكنه يدرك أن ما يحتاجه سُرِقَ من سوق الشرفة، أو أن هذه الشرفة ما هي إلا مخيّم مؤقت خيّم فيه حتى يرتب أفكاره

لمعاودة الحياة والالتحام بمستقبل سيكون بالتأكيد له طالما أنه وضعه نُصْبَ عينيه.

ينظر حوله ليملأ عينيه من منظر يختزنه في رأسه الصغيرة علّه يذكِّره في قابل الأيام بلزوم الحياة. ثم يواصل سَنَّ رجله المكسورة، علَّ صفحة العصافير تلتقط الحرف، أو تدرك حركةً لاحت في مفاصل الأرجل. نبرات سيمفونية تدبُّ في الخفاء، ربما في رجله المكسورة، وربما في الصفحة التي رسمها في الأفق، وربما في أشتات الطعام التي تحلم بها العصافير الكسالى. لكنها تدب، يكاد يسمعها. فيلقي بالرجل المكسورة في وجه العصافير، ويبدأ في الحركة كأن شيئا لا ينقصه.

20-21 مارس 2009

ثمرة على حافة الحلم

تتراءى له ثمرة بارقة في عينيه. تتهجَّى على شفتيه حروفا لم يفكِّر فيها. تتشكَّل كما الطيف بألوان تتجمَّع في رقعة واحدة. يمتدُّ نسيجٌ بطول الغيطان الليلية وعرضها ويرفرف في مقلتيه هائما. تطهي الألوان شوقه على مهل وكأن روحَه هي الشوق وهذي الغيطان جسد له.

رآها تينية اللون تستوي تحت ملمسه وتقطّر لبنها على جروح يديه فتبرأ. أبصرها حمراء تتهادى في عينيه وتنشر بذور المحبة على قلبه الطيني فتمرح أغصانه في الأفق. تشكلت أمام عينيه برقوقية اللون تمازح دما أرجوانيا ينطلق في براح جسده فيقف لها احتراما وولها. ارتآها قرمزية تقف على حدود شفتيه في خجل ولهفة وكأنها تناديه بكل الأسماء وكل الألوان فيؤكد لها أنها جذر يمنحه حرية الانطلاق في البراح عند حدودها دون أن يفلت زمامه أو يتوه وسط الملامح. ارتسمت أمامه قمحية اللون تطعم عصافير قلبه فيغرد على نافذة عشها طوال الليل. كانت كل الألوان تتشكل

في أرض عينيه لتُخرج هذه الثمرة حقيقية يكاد يلمسها ويهمس في فمها الموارب بكل اللغات.

لا يستطيع أن يحدد لها لونا. ولكنها بالتأكيد تخاطبه، تناديه، تقول له:

- أنا هنا، أين أنت منذ سنين ولّت؟ أم تراك لم تكن هنا منذ ثلاثين سنة؟ أم أنك انشغلت بوجه غير وجهي، بعيون ليست عيوني، بأمنيات لم نتقاسمها سويا؟

يدرك غرابة الأسئلة في هذا الوقت بالذات الذي يحس فيه بأنها أقرب إليه من دمه. ولأنه لا يستطيع أن يدرك للأسئلة سببا، يزيحها من على عينيه مؤقتا وينغمس في الألوان التي تقف لغتُها على أعتاب أذنيه.

تغرسهما تينيَّتُها تحت شجرة تين لا تبخل بأن تلقي عليهما ثمارا لا تحتاج إلا أن تستحم في صحن ماء تحت الصنبور. فيغتسلان سويا بماء مطر يهب في صيف حارق. ينسلان من بين الجميع ليجلسا سويا على جانب مجرى الماء الجاف، فتهرول أعينهما فوق النباتات لتستحث نسيمات

الهواء الكسولة على الهبوب، فتحمل لغتهما وما توقد بينهما إلى ذلك القمر الهامس علّه يبثُّها في كل القلوب فتعمر الأرضُ بالنباتات والحياة.

ترسم قرمزيتها له أرضَ حَلَمَةٍ على وشك الولادة والامتداد. يتحسس بطنها ويهمس في أذن ذلك الذي يتكور داخلها لاهيا بأنهما في انتظاره على أَحَرّ من رمال هجمت عليها الشمس وسط صحراء خارج حدود المدينة. يرفس في بطنها كأنه يتثاءب ويمد يديه ورجليه ليحفر في رحمها، فتصرخ في دلال وتنظر إليه:

- أترى ما يفعل ابنك؟

يبتسم ابتسامة مستبشرة ويربت على بطنها في خفة، فيحتضنان في سكون للإنصات إلى دبة الجنين.

تشكل حمرتها له شفاها تجلس على ناصية الارتشاف والإمطار. يقول لها:

- أهلا بك في بيتك، ألا ترين الجدران التي أنارت بمقدمك والهواء الذي تجدد؟

فتحيد بوجهها في دلال. يقترب منها ويلف يده حول خصرها فترتعش. يظنها فوجئت به، فيرحب بها من جديد ويتقاسمان كوب عصير. يباغتها في الرشفة الأخيرة ويقطف وردة من على خدها، فتنهض خجلة وتدخل الغرفة، مغلقة الباب ورائها. يدق الباب دقات خفيفة سرعان ما تتصاعد عندما تمعن في عدم فتحه. وعندما تدرك سرعة الدقات ولهفتها تخشى أن تصل الدقات إلى الجيران فيخرجون ليضعوا آذانهم وراء أبواب شققهم. تفتح له الباب مواربا. تطلب منه أن يغمض عينه، ولكنه يباغتها قبل أن تعطيه إشارة بفتحهما، فيجدها قد بدلت ملابسها وفردت البطانية على جسمها فوق السرير.

تتبختر برقوقيتها ثمرة مباحة على أعتاب الحلم والحياة. يمر أسبوعان كأنهما سنة من الانتظار. أسبوع توترٍ وخوفٍ من أن يندثر ذلك الرمز المكنون. وبالرغم من أنها

تدرك أنه لا يحق له أن يظل مكنونا بعد الآن، إلا أنها لا تستطيع أن تواجه خوفها. وتحمد الله أن أسبوعا آخر هلّ رغما عنها وعنه قد يطرد خوفها خارج باب الشقة ليلقيه في وجه عروس أخرى أو تدهسه عربة عندما يشرد في الشوارع بعد طرده.

تعده قمحيتها ببذور أخرى تضاجع أرضا كانت لهما فتغمرها بالخضرة والينعان والتواصل. تمتد أنامله فتلمس أرضا بكرا لا تعرف شيئا. ويتبين أنه هو الآخر لا يعرف شيئا، فلقد ضاعت كل تلك الأفلام التي شاهدها هباء كأن شخصا آخر كان يشاهدها غيره أو لعله أدرك أن الواقع أمر مختلف. يهم بها ويجدها تتماسك وتستعيذ بالله من شيطان يحاول أن يغويها بالحفاظ على شيء ما عاد لها. يتوضآن سويا ويصليان ركعتين، استسقاء أو شكرا أو تسبيحا. ويلتقيان.

تنفرد الثمرة على الغصن، ربما ليس غصنا واحدا، بل مجموعة أغصان التقت في هذه الأرض وتبادلت العصارات

واللغة والتاريخ، أو لعله كان غصن تلك الشجرات التي تزدهي أمام ناظريه وتتسامر في ليلة صيف حلما بنوم في أحضان بعضها البعض. يراها تتربع على ناصية الغصن وكأنها الوحيدة في هذا الكون تجمع كل الألوان في يمينها وتتمازج كل الوجوه في بشرتها. يبصرها ممتلئة نوعا وتظنها عيناه مفلطحة ولكنه عندما يقترب منها يجد بطنها متكورة كأنها حبلى بحياة قادمة، بوعود على حافة التحقق، بأمنيات تجلس على جدار الحلم وتدلي بُشْرَاها للعيان متباهية بخصوبتها. تتراءى له ذات زهرة أو ريش، تحط على شغاف قلبه، وكأنه زهرة يرتادها النحل ليخرج عسلا لذة للشاربين والذائقين. يحس بلسعة، ولكنه يدرك فيها الشفاء. يقارب المناعة. يجرّب اللذة. تختلط الصورة أمام عينيه.

يبدو له أنه يتبين تشققا في جلدها أو تآكلا في جلد شفتيها. تضع يدها على بطنها وتهرع إلى الحمام. تُفرغ في الحوض ما لم تأكله أصلا وتخرج معتذرة. يبتسم ويأسف على ألمها في آن. تطلب منه خوخا وعنبا. يستغرب لطلبها

في وقت الفجر. يرتدي معطفه ويخرج عله يجد بائعا في هذا الوقت. تتخطف أقدامه الشوارع والأبواب المغلقة. لا بد أن الميدان لا ينام. يستبشر عندما يرى الكلوب مضيئا. يبتسم البائع عندما يعرف طلبه العزيز. لا يعبأ بالسعر فهو يدرك تماما أن الموسم غير الموسم ويعود فرحا بالكيسين. يجدها تأكل طماطم وجبنة قديمة في شراهة لم يعهدها حيث أنها لا تأكل إلا أقل القليل. تتلقف الكيسين بلهفة طفل فرح بلعبة كان يلح على أبيه في شرائها.

قد تكون الثمرة أكبر من الغصن وربما لا يوجد تحتها غصن أصلا وكانت تضرب بجذر في الأرض القديمة. يحسب ما يراه نهارا ويراها هي شمسا تستظل من حرارة نفسها بحديقة مقفرة. لكن حركة الأغصان تلفت النظر إلى نفسها، والأرض حوله عمار، وعمار قلبه لا يقل عن عمارها.

يشك أن الجو ليل وأنها قمر يضيء الغيطان أو يسبي ست عيون، عينان له وعينان لراكب الحمار وعينان للحمار

نفسه. ولكن شفتيها ينمان عن حرارة هذا الجو، عن تراب هذي الأرض، وتبيَّن وجهها أليفا ومألوفا وحميما، كأنه يجمع كل الوجوه التي يختزنها عقله الصغير. هل توجد أوراق على الغصن؟ سؤال لا يستطيع الإجابة عليه. فقط يذكر أن الغصن يجمع بين البنيّة والبياض، بين الاصفرار والسواد، بين الحمرة والقرمزية، كأنه كان كل الألوان وهي تزدهي بتآلفهما ولقائهما وحياتهما المشتركة. يحاول أن يلمس الغصن. لكن يده لا تستطيع أن تحدد شيئا وسط زخم الملامس.

يتذكّر أن قدمه دبت على هذه الأرض مرتين. مرة عندما كان الغيط له في صباه. وهذه المرة لم يكن الغيط له. يذكر قانونا بفك الرهن وإرجاع الأرض المرهونة إلى صاحبها. وبالرغم من علاقته الحميمة بصاحبها إلا أنه يتذمر، يضج بالأسئلة، تطارده "لماذا الآن" طوال الطريق، في كل شبر من الأرض، في كل نبتة خضراء تمرح أمام عينيه، وكأنه يطرح عليها السؤال نفسه أو يحتضنها في أسى

وشفقة. تنظر إليه كل نبتة في خضوع لعلها تلمّح إلى عدم فهمه أو تقديرها العميق للشفقة التي ليست في موضعها.

وبالرغم من انفكاك الرهن، يذكر أيضا أنه كان موجودا هنا كل صباح. يمسك مذياع الجيب بيد وباليد الأخرى ينقّي الحشائش، يطارد أشباحا تحاول أن تجثم على حياتهما، أن تنقضَّ على كل ما يدَّخرانه من حميمية وصفاء ومباهج. يغرس الفسائل، يبذر البذور، يرش السماد، يرعى جذرا يغذيانه كل يوم بما يجمعهما ويوفِّق بين ملامحهما وسط الوجوه التي تتلاشى مع الزمن.

يرى نفسه يأكل ساعة الظهيرة تحت الشجرة، يشعل النار في المجرى الجاف ويضع الكنكة وسطها ليستوي الشاي على عجل. وهي تجلس بجانبه بعد أن أرهقها العمل منذ الصباح. تتكئ بظهرها الصغير على جذع الشجرة وتحكي له عن همس النبات ولغة الطمي وملمس الخضرة. تروي له عن النبتات الصغيرة التي تراها عصافير تغرد في الصباح والديدان التي تبصرها عفاريت في عز النهار

فتهرسها في الأرض ولا تخاف منها. وشجرة الرمّان التي تومئ لها من بعيد وكأنها تلاعبها وتناديها بالاسم دون كل البنات. فيحكي لها عن رحلة الورود في بلاد الظلام التي لا بد أن تمر بها حتى تتفتح في الصباح محملة بالندى والعطور وعن القطار الذي يسافر بعيدا ولا يظهر منه إلا صوته الذي يمر بجانب النهر ولا يبلغهما إلا خافتا لأنهما مازالا صغيرين ولن يسافر بهما القطار الآن. سيظل النهر يرسل مياهه وأسماكه إلى الترعة ليلعبا مع الأسماك الصغيرة التي تمرح في الغيطان ساعة ريِّها. يبدآن في ارتشاف الشاي ويتحدثان عن القراميط الصغيرة التي اصطاداها من الغيط وحفرا لها حفرة عميقة ووضعاها فيها بعد أن ملآها بالماء وفتافيت الخبز وأوراق الشجر. يوشك أن يربِّت على كتفها الصغير ليطمئنها على القراميط التي ستكبر وتطعم البيت كله، لكن يده تفزع من ملامسة الفراغ.

يحاول أن يتحسس أوراق الغصن. لا يجد شيئا. فقط تَذْكُر يده ملمسَ الأرضِ، حركةَ كل نبتة عند ملامستها،

ذبذباتِ صوت العرب والشرق الأوسط والشباب والرياضة. تذكر أذنه "صباحك معطّر" و"كتاب عربي علّم العالم" و"أنت تسأل والكمبيوتر يجيب" و"أبلة فضيلة" وهالة الحديدي وموسيقى الشعوب وصوت فيروز وعبد الحليم وأنغام الصغيرة. تذكر عينه القطن والفول السوداني وفول الصويا ومحمود شخون وميزانه والأوراق النقدية التي كان يعدها بعد الوزن.

هل رأى كل ذلك في هذه الثمرة؟ ربما كانت هناك لقطات أخرى وراء هذه اللقطات. يظن أنه رأى نفسه والعيال بعد المغرب يتسللون عبر الغيط إلى الحديقة لتتحسس أياديهم البرتقال والتين والرمان في حذر وتمتلئ حجورهم على عجل. بعد أن يبتعدوا بالقدر الذي لا يسمح لآبائهم باصطيادهم، يضحكون فرحين بإنجازهم ويشعلون نارا برغم الحرارة ليقسّموا ما قطفوه على ضوئها. يتشاجرون قليلا على الحلال والحرام. يستشهد كل منهم بصوت أبيه الذي يمنعه من الاقتراب من الحديقة إلا حين تنضج تماما

ويأخذ التاجر منها ما اتفقوا على بيعه له ويترك الباقي لهم ليأكلوا منه ويوزعوا على الجيران. ولكنهم سرعان ما يعودون إلى القسمة. وربما يرى نفسه ويراها يلعبان "عَدْلَة" ومن يغلب الآخر ويوقعه أرضا يأخذ ما يحلو له من الثمار ويسلّم الآخر بما تبقَّى له. يحتضنها بكل ما استطاع أن يجمّعه من عافية ويهوي بها على الأرض كأنه يحاول أن يزرع شجرة عنيدة تظللهما في حر الصيف. عندما يدركان أن كليهما انتصر يتضاحكان ويعطيها قدرا من نصيبه، فتختار ما يحلو لها.

يجد أيدي الأطفال تمرح في الثمار. يبصر وجه بنتيه. لكنه كان صغيرا وكانت صغيرة. هل قفزت البنتان من عينيه إلى هنا في المنام أم تراهما ليستا بنتيه؟ تحتضن ابنته الصغرى ساقيه في دلال فينزل إليها ويتأكد من ملامحها. ينهض. يلتفت إلى زوجته التي لم تكن زوجته ويقول لها إنه يحلم فكيف تظهر البنتان في حلم سابق عليهما؟ تجلجل ضحكتها وسط الغيطان فيشد على يديها مستحثا إياها على

إخفات ضحكتها إلى حين الدخول إلى غرفتهما بالرغم من أنه يدرك أنهما لم تكن لديهما غرفة ولم تكن هي موجودة أصلا ولم تكن البنتان قد ظهرتا في الأفق بتاتا. تخفت الضحكة تماما إلى أن تتلاشى وتحل محلها تلك الثمرة التي تراوغ الإمساك.

تمتد يده نحو الثمرة. ثم تتراجع متردِّدةً. أهي حلال أم حرام؟ يسقط شيء من يده لا يدري ما هو، لكنه يحس بخفة، بهمة، بنشاط، بشوق. يشعر كأنه على أعتاب شيء ما، كأنه الدور الثاني من البيت وقد ارتفعت أعمدته. يهز رأسه، فهو يعرف أن حديد التسليح طار عاليا في الهواء وأن أحمد عز لم يبقِ له فرصة لإكمال البيت، فها هو يرى الحديد يحلق بعيدا، يباعد بين منقاريه ويخرج له شيئا أشبه باللسان يبصق على رأسه، وربما يحط فوق رأسه ويأكل منها. لكنه يرى الأعمدة ويرى نفسه واقفا مع رجال المقاول يشدّون الألواح والأعمدة الخشبية تجهيزا لصبّ السقف. كأنه ينظر إلى الأرض من فوق الدور الثاني أو هي التي تنظر إليه.

تتمايل النباتات، يراها تهتز طربا، تترنح ألما من مبيدات سامة قتلتها، تنكسر أمام الريح، تقف صامدة، يبصرها في كل حالاتها أو هي التي تراه في كل حالاته. كأن نارا هبّت في الخصّ فحرقت كل الصوامع والحيوانات والطيور، أو لعلها لم تكن نارا، بل كانت أمطارا تنهمر على الخص وتتساقط منه لتغرق البيت. يدرك أنه لم يصبّ الدور الأول، فيعض يده، عله يصحو. لكنه يظل كما هو وسط أعمدة الدور الثاني. يرى أباه واقفا وسطهم، يمزح مع هذا، يميل على أذن ذاك ليهمس له بسر أو همّ. يفرك عينيه. ينظر إلى أسفل تلك الشجر ليتبين ما إذا كان أبوه مازال راقدا تحتها لا يقوى على الحراك أو النهوض. لا يراه. أبوه مازال وسطهم وتلك الثمرة تحط فوق رأسه كأنها شجرة تين عفية تهب من يجلس تحتها أو ينادمها العافية.

تمتد يده نحوها من جديد. يهمّ بها فيراها تهم إلى يده. تحاول صورةٌ الارتسامَ أو هو الذي يسعى لأن يرتسم بجانبها على شريط لا ينتهي. تنظر إليه بطرف عينيها خجلا أو

دلالا، يحاولان أن يتهجيا حروف لغة بينهما، تتشابك الحروف أو تتنافر، لكنها تدور في فلكهما. عندما يوشك أن يضع يده على خدها تفر هاربة بين الأوراق. تبدل فستانها. ترتدي كل ألوان الثمرة. ينظر إلى جلبابه يجد ألوانه تبدلت وكأنها هي والفستان صنعا من قماش واحد كانا يحلمان به يسترهما ويجمعهما في نفس الأوان.

الألوان في كل شيء حولهما. حتى الأغصان اكتست بأوراق تبدو أمام عينيه كأنها الخضرة ذاتها. يدب بقدمه على الأرض فتنبعث الأصوات الموسيقية من فمها، كأنها نوتة موسيقية في انتظار من يقرأها على العود أو الناي. يعاود الطائرُ الظهورَ، كأن رأسيهما صغرا كثيرا وها هو يحط برجل على رأسه ورجل على رأسها. يفقأ عينا له وعينا لها.

تنتقل الثمرة معهما. ضفة ترعة كبيرة صافية المياه. كأنهما غطسا سويا، فها هما يُخرجان رأسيهما من الماء ويتقاسمان ضحكة. يعاودان الغطس ويغسلان جسديهما بالماء كأنهما يتوضآن. يدرك أنها قالت له "لا" وفي نفس

الوقت يدرك أنها معه الآن يستحمان في الترعة وكل الوجوه تسير بجانب الترعة دون أن تعلّق بشيء، كأنهما جزء من هذا الماء الذي يسير ليروي الزرع وينشر العافية في الأغصان.

كأنهما ارتديا ألوانهما أو أحسا بنقصها، فها هما يتسلقان نفس النخلة صاعدين إلى البلح الذي يناديهما أعلاها. لكنهما يجدان نفسيهما فوق صبة الدور الثاني الذي فُك خشبها للتو وهما يرشان الماء فوق الخرسانة لكي يقوى تماسكها. يقطعان نتفة من تلك الثمرة ويدفنانها في الطين داخل ماجور ويرشان الطين بالماء. تنبت شجرة جافة كأنها تسخر منهما. ينساب الدم من أيديهما عندما يبحثان عند جذرها عن منبت للخضرة.

ترى نقاط دم تتساقط على سرير، ويرى نقاطا أخرى تنهمر من رحمٍ يصرُّ على البوار فيلفظ حياة تشكلت بالفعل. يحاولان أن يحضنا بعضهما فلا يجدان جسدين، فقط بعض الألوان التي تنسكب على بعضها البعض ولا يوجد أي أثر

لألوان تلك الثمرة. الترعة التي كانا يسبحان فيها لم تعد موجودة، وملابسهما جافة تماما تحمل رائحتي مكانين مختلفين، أوانين متباينين، عالم هنا وعالم هناك. تعاوده رائحة المدافن كأنه يزور أباه ليقرأ عليه الفاتحة ويترحم على روحه التي يتمنى لها الجنة. تفزعه الرائحة بالرغم من أنه كان يشم فيها الخلود. يجد نفسه وحيدا على السطح. يتحسس جسده. يلمسه دما ولحما، كما هو. تتراءى له بعض البراعم في الشجرة، فيخاف أن يلمسها كي لا تتلاشى في الهواء أو تتحول إلى مجرد أثير وبقعة من الألوان غير قابلة للتجسد.

يجد نفسه في نفس الموضع وتلك الثمرة تراوده بالقرب من جانب الطريق. يقف قبالتها. يطلق لها عينيه علَّها تخجل أو تخفِّف من قلقه أو تقترب منه. يجدها ترنو إليه بنفس قوته وتركيزه وشوقه وكأنها تقول له:

- انظر إلى تشققاتي، ألا ترى صفرة وجهي؟ أنا لست هنا يا حبيبي.

يرنو إليها وهو يحاول أن يجد شيئا يسعفها به، ولكنها تبعد طرف وجهها عنه، كأنها تعاتبه أو تلومه على شيء ما أو تداري دمعة ستتساقط من عينيه رغما عنه عما قريب. يمعن النظر. يبصر عينيه أمامه كأنهما خرجتا منه ووقفتا على البعد تراقبان الأمر. وعندما يدقق النظر في عينيه يجد صورة باهتة لها كأنها اُلتقطت منذ زمن بالأبيض والأسود أو لعل ألوانها بهتت وتلاعبت بها سنوات ستبعدهما عن بعضهما بعضا.

يدرك أنها نائمة بجواره وأنه كان يحتضنها قبل نومه، ولكنه مستيقظ الآن، وحده وسط الغيط الممتد في جميع الاتجاهات. يظهر على صفحة عينيه رقم هاتف قديم كانت قد أعطته إياه. يتذكر الآن غباءه، عدم قدرته على تأويل الكلام. لماذا أعطته رقم هاتفها بعد أن قالت لا؟ ظل غاضبا لسنوات. وها هو الآن يغضب لغضبه، لجهله، لحمقه. يهم بالثمرة فتراوغه. لا يفكر في شيء سوى أن يمسح التراب من على جلدها أو قشرتها، لكنها تصر على المراوغة ولا تلمس يداه

سوى جفاف الغصن. يكاد عقله يطير. هل مازال غبيا كما هو؟ أم أنها لغة جديدة أو حروف لا يفقهها؟

يغمض عينيه. تنداح الصور كأنها تلقائية. يتحسس المقعد الرخامي تحته. محطة قطار بالفعل. لكنه لا يدري مَن المسافر. أهو أم هي؟ يحدقان في بعضهما بعضا لعلها يريدان أن يضما مشهدا للأبد أو يلتقطا مشاهد فيلم تسجيلي ما. يلمس يدها كأنها اللمسة الأولى. يجدها ترتعش أو لعل أناملها تحمر خجلا أو اندهاشا لملمس يتراءى على صفحة يدها لأول مرة.

عندما يدوي القطار، يحملان حقيبة وحيدة ويصعدان سويا. يسيران نحو كرسيين وكأنهما كتبا باسميهما أو يألفانهما. يتأمل صورته في عينيها وتتأمل صورتها في عينيه. يحس الجالس بجانبه بالحرج فيلفت انتباهه بعصبية إلى أن تحديقه فيه هكذا لا يصح. يهز رأسه. لا يجدها. يعتذر للجالس بجواره في خجل لا يعرف كيف يتخلص منه. ينهض مستأذنا. لا يجدها. أين تكون قد ذهبت والقطار لم يرسو على

أية محطة بعد؟ سؤال طرحه على نفسه وأخذ يبحث بين المقاعد والعربات سعيا وراء إجابة له.

وصل إلى نفس الشجرة والثمرة التي تناديه. وبالرغم من أن ألوانها تبتسم له، مازال يسمع دوي القطار. فيُغطس رأسه في مجرى الماء بجانب الطريق ليغرق ذلك الدوي للأبد. هل كان رقم هاتف أم أنه كان يكلمها في الهاتف بعد خطوبتهما وطلب منها أن يذهب إليها؟ كان لا يعرف ما يقول. فقط بعض ما قرأه في الكتب أو رآه في الأفلام. كأنها فوجئت بما طلبه. على الأقل الهاتف لا يلتقي فيه أحد. "لا"، كررتها بعصبية وهددت أن تنهي المكالمة على الفور إن لم يفق. أصر على طلبه، لعله كان يختبرها، فسمع صوت السماعة وهي تصطدم بالهاتف في تأفف. ابتسم وسرعان ما تحولت ابتسامته إلى ضجر لأنه لم ينوِ الغدر. لكنها كانت تثق بالأفلام وبالغدر فبترت المكالمة.

عاوده رقم الهاتف ورصيف المحطة وغرفتان تبعدهما مئات الكيلومترات. تلاشى دوي القطار تماما وكأنه وصل

محطته. فها هو يجد أخاه منتظرا إياه بالسيارة خارج المحطة. يتصل عليها ليطمئنها على وصوله بالسلامة ويعدها بالمرور عليها بعد أن يرى أمه ويطمئن على أبيه.

يجد أباه تحت نفس شجرة التين. يجثو على ركبتيه ليحتضنه ويقبّل يديه. يغرز شفتيه فيهما علَّه يصل إلى العروق تحت التجاعيد المتيبسة ليطمئن على حرارة الدم. يتكئ على ذراعه بجانبه ويتشرّب ملامحه. يبتسم عندما يزيح أبوه عينيه في الاتجاه الآخر، فينهض مرتبكا.

تقبّله أمه في كل المواضع وتشتمه لقسوة قلبه التي تبعده بالشهور. يعتذر لها بكلمات ليست في قوة لهفتها ويحتضنها بقوة فتبتسم وتضربه بطرف يدها ممازحة.

تتلاشى صورة أمه وأبيه وصوتها في الهاتف وتتشكل تلك الثمرة مكانهم كأنها شغلت أماكنهم جميعا. يحس بقلبه يضطرب، يجري في الغيط بحثا عن سبب، عن معنى، عن تفسير للمعاودة التي لا تلبث أن تستولي على كل الصور والوجوه أمام عينيه. يكتشف أنه يصل إلى تلك الشجرة ويقف

عندها متهدجا. يلهث بكلام لا يفهمه كأنه بلغة يعجز عن فهمها أو كأن غريبا يخاطبه أو يأمره أو يبلغه بشيء ما. يهم أن يستفسر من الغريب، لكنه يتلاشى دون أن يسمع منه إجابة شافية.

ينقضُّ على تلك الثمرة التي يحسها تتباعد تدريجيا. يريد أن يقبض على ملمسها ليختزنه في يديه قبل أن تتلاشى للأبد. تفزعه البرودة والتيبس.

- ربما تحول الحلم إلى كابوس

يقولها لنفسه وهو يمسحها ببطن كفه ثم يقضم قضمة. يحملق فيه ذلك الذي يسير على الطريق بجانب الغيط راكبا حماره. يتلفت في كل الاتجاهات عله يتبين وجها. يقضم قضمة أخرى ويعيد إليه حملقته. يضحك راكب الحمار ساخرا وصوته ينطلق في عنان السماء وسط الليل الممتد. تستفزه الضحكات الساخرة فيلتهم باقي الثمرة علَّ جسمه يتشرَّبها وتطفو ألوانها إلى ملامحه. يبتعد الرجل والحمار دون أن تنقطع ضحكاته المستفزة. يستيقظ على صدى هذه

الضحكات فيجد أنها مازالت نائمة بجواره وقد ازداد وجهها بياضا. يستغفر الله على اختلاط ملامحها بملامح أخرى في منامه. ويفتح ذراعية لاحتضانها. ينتفض قلبه من البرود الذي يدثرها. يشك في قدرة يديه على اللمس والإحساس. يضع أذنيه على قلبها، فيمتد الشك إلى كل حواسه ويقف مذهولا لا يصدق ما أوصلته له هذه الحواس أو يعرف ماذا يفعل.

صيف 2008

ضريبةُ خروجٍ

-1-

يعدو غيمٌ وراء غيمة يراها متمردة، قالا:

- لا بد أن أمسك بها!

تتبعثر أجزاؤه:

- لا يهم! فعلى الأقل سأجعلها حبلى بغيم آتٍ!

يسقط على الأرض:

- لا بأس! سأعود إلى السماء غيما جديدا!

يجرف النبتَ:

- ما لي تحولت إلى إعصار!!؟

تختبئُ نبتة وليدة تحت الطين!!

-2-

يتلمظ الطين، يتشهى النعومة الواعدة، تأكل الرغبة شفاهه، يتلمس أوراق النبتة، تبرق النبضات الحارقة في أحشائه:

- لابد أن أتخلص من تلك الحرقة قبل أن أجف ولا أصير أنا!

يتحسس ساقها، تنتفض في دلال، يبتسم، يتصلب، تتلوى على الأنغام الطينية!

-3-

تبرق نبضة في ساقها، تنتفض مذعورة، يتذكر مائيته، تتذكر هوائيتها:

- مكاني ليس تحت الأرض

تستجمع قواها، تقذف بنفسها إلى الهواء!

-4-

تهب عليها النسيمات، نسمة تداعبها:

- أهلا بك في عالمنا

نسمة تلفحها:

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟

نسمة تثلجها:

- لِمَ لَمْ تحتاطي للبرد؟

نسمة تُسقِط ورقة منها:

- مادامت سقطت، فلا تستأهل الحياة

-5-

تتذمر للحظات:

- ما كل هذا؟

تبرق نبضات في ساقها:

- لمَ كل هذه المتناقضات؟

نبضة تدفعها للمقاومة:

- مكانك هنا، لا تسمحي لأحد باقتلاعك.

نبضة تغلق أوراقها:

- داري على شمعتك، ستهدأ العاصفة يوما ما.

نبضة تحثها على المبادلة:

- سايري الجميع، اغتنمي كل ما أمامك

ونبضة تود إرجاعها لجذورها:

- إنه عالم فاسق، لا مكان لكِ فيه!

-6-

تدور بين النبضات، وتقول:

لا يهم، يكفيني أنني بجذوري، وأستنشق الهواء الطازج، مادامت هذه ضريبة الخروج للنور!!

2006

طريق الجبَّانة

ما هذا الصوت؟ توقَّفْ. ربما كان يريد شيئا. هي حسنة ستكسبها. لن تخسر شيئا. وحتى إن كنت ستخسر، ليس معك شيء لتخسره أصلا. الواحد لا يرى أحدا أمامه في هذه السوق وسط الزحمة، كما لو كان لم ينمْ منذ أسابيع. أفِقْ. ليس هذا بالمكان الذي يسرح عقلك فيه. سيدهسك الناس كلهم. لماذا ينادي هكذا؟ صوت غريب. لا تلتقط أذني أُلْفَتَهُ. انظرْ للوراء. لا يوجد ورائي صوت يناديني. ولا يوجد يمينا أيضا. بائعة الجرجير كما هي في مكانها. ولا يسارا. بائع البصل يزن لزبائنه كما هو. لا تنظر إلى هذا البائع هكذا. ها هو ينظر إليك. وها هي نظرته تتحول إلى شكٍّ. أيعجبك شكَّه فيك هكذا؟ انفضْ ما بك من حَرَجٍ وانظرْ للأمام. أكملْ خطوتك في هذا اليوم الذي لا يريد لجيبك أن يرضى.

كيف بالله لا أرى مصدر الصوت وأنا أسمعه في أذني واضحا وضوح بائع الطعمية أمامي الآن؟ ليس مجرد ظنٍّ. من المؤكد أن أحدا يعرفني ينادي اسمي. قفْ. ضعْ يدك

أعلى حواجبك. ربما كان بعيدا ولا تراه جيدا. مريح هذا الوضع. لن ينظر أحد في عينيك مباشرة ويرميك بنظرة تُحْرِجُكَ. ليس هناك أحد بعيدا أو قريبا يشير إليك. ولا لسان ينطق باسمك. اصعدْ على هذه الصخرة واستطلع المنظر. ربما كان مختلطا بالوجوه الكثيرة حولك. استدرْ للأمام وأكملْ طريقك يا رجل. ربما كان كل ذلك مجرد تهيؤات سمعية لا أكثر. كيف تكون تهيؤات وها أنا أسمعه مجدَّدًا في أذني الآن؟

سأنظر للوراء للمرة الثالثة وسأتحقق من مصدر الصوت. أسمعه ولا أراه. أين أنت أيها الصوت الـ... لا تلعن أحدا في هذا الصباح. الأيام قد تكتسي ببدايتها. عندما تخرج من السوق، انعرج إلى أي شارع خالٍ أو أقل ازدحاما حتى تتحقَّقَ مما إذا كان هناك جسم يخرج منه هذا الصوت أوَّلا أم لا. وبعدها العنْ كما تشاء إذا كان ذلك يحلو لك. أي شارع جانبي وأنا لم أشترِ شيئا من السوق بعد؟ دَعْكَ من كل هذا الآن وركِّزْ في البحث عما تريد أن تشتريه. وهل هناك

غيرها تلك الطماطم اللعينة؟ لا يُستطعَمُ الأكل بدونها. وحتى الصلصة لا يريد سعرها أن ينزل بالرغم من أنهم يصنِّعونها عندما تكون الطماطم رخيصة جدا. منذ نصف ساعة وأنا أبحث عن طماطم رخيصة. كل بائع يقول لي: "الكيلو بعشرة جنيهات". وكم جنيه في مرتَّبي أصلا؟ ها هو آخر بائع قبل نهاية السور. أبو وليد يستأهل أن تشتري منه. وليد شاطر جدا. وفيما سيفيدك حجمها الكبير أو الصغير؟ أتشتريها كبيرة بعشرة جنيهات أم صغيرة بخمسة جنيهات وتوفِّر الباقي لتشتري به أي شيء تطبخ به هذه الطماطم؟ دعك من حجمها الآن. لا تأخذ بالمظاهر يا أستاذ التاريخ. وما المشكلة في أن يكون حجمها صغيرا جدا؟ أكانت ستعجبك الحبَّات العَشْرُ لو دفعتَ فيها عشرة جنيهات؟ وما المشكلة في أنك ستنتقي هنا خمسين حبَّة؟ لا شيء يفرق أبدا. لا. تفرق أشياء كثيرة. تفرق جدا. على الأقل الانتقاء سيريح رأسك قليلا. اندمج يا رجل ولا تَخَفْ.

أهلا بك أيها الصوت من جديد. وتهمس في أذني الأخرى أيضا؟! اذهب بعيدا الآن. صوتٌ غريبٌ حقا! كأنني أسمعه مُجَسَّمًا في أذني. هل يمكن أن ينتقل الصوت من داخل الأذن إلى خارجها؟ في هذا الزمن يمكنك أن تتوقع أي شيء. مادامت كل الأمور مقلوبة هكذا، فالصوت يمكن أن يخرج من الأذن بدلا من أن يدخل فيها. المرتب لا يكفي أسبوعا واحدا وأنا مطالب أن أجعله يكفي شهرا. هل لو أدخلته في جيبي سيخرج إلى يدي أربعة أضعاف؟ اخرجْ أيها الصوت من أذني وتجسَّد أمامي الآن. سأعطيك المرتب كله. عندما أقبضه طبعا. كلها مسألة خمسة أيام. وَأَرِنِي كيف ستجعله أربعة أضعاف؟ يبدو أنني جُنِنْتُ. لا. لم أُجَنَّ. ها هو في أذني من جديد. سأدُلُّكَ على حلٍّ مؤقت. أي حل وأنت لا تستطيع أن تحلَّ مشاكلك؟ فلتنشغل بالطماطم التي أمامك الآن. لكنها طماطم صغيرة جدا. هل ستستطيع زوجتي تقطيعها أصلا فتتلاشى، أم تسلقها كما هي بحجمها الضئيل هذا؟! أيُعقل هذا يا ناس؟ أرضي مليئة بالطماطم وأسيرُ في

هذه السوق إلى أن تحفى قدماي حتى أجد طماطمَ لا تلتهم فلوسي كلها؟

تمهَّلْ قليلا أيها الصوت! أأفرغُ لك أم أفرغ لتنقية هذه الطماطم التي تَنْفَلِتُ من فتحات أصابعي؟ صحيح أن العلم نور. نور أم ظلام يا عم؟ الكهرباء كانت مقطوعة طوال الليل. وبنيناه فعلا. أسُرق الماء أم انخفض منسوبه؟ هل انقطعت الكهرباء أم تم تهريبها؟ وفوق كل ذلك الفاتورة كما هي! الواحد صارت لدية عقدة من موظف الكهرباء. كلما يراني يقول لي:

- حِمْلُكَ ثقُلَ.

أقول له:

- خفِّفْه.

ألا يقولون إنهم يخفِّفون الأحمال؟ فليخفِّفوا حملي الثقيل إذن! لا أدري إن كان حملي وحده هو الثقيل أم أن رأسي هي الأخرى ثقلتْ؟ أي طماطم هذه التي كادت تفلت من نظرات

نظَّارتي كما تفلت من بين أصابعي؟! لي موقف معهم اليوم جميعا. لا يمكن أن أسكت لأكثر من هذا. وبعد كل هذا ينتقل اسمي لكشوف المراقبات في أسوان؟! ما علاقة جهينة بأسوان أصلا؟! وهل إن مُتُّ هناك أو لدغتني عقربٌ سيرعى إخوتي عيالي؟ وهل سينفعني ذلك الوزير أصلا؟ يا رجل الأعمار بيد الله. وبيد العشوائية أيضا يا مدرس التاريخ.

يا أخي راعِ خصوصيتي قليلا! ألا ترى؟ لا. لا ترَ شيئا. أنا أصلا لا أراك. فقط تطرق باب أذني كموظَّف فواتير لا يملُّ. وربما أنا الذي حبستك داخل أذني. ربما. بصراحة لم أعد متأكدا من شيء أبدا. ولماذا العيب هكذا؟ أنا لم أخطأ في حقك. ويفترض أنك لا تخطئ في حقي. لا لوم عليك. اللوم كله عليَّ أنا. أنا الذي تركتك تنهش أذني هكذا. أوصلت بك الوقاحة إلى هذا الحد؟ أنت الذي كُلُّكَ قلة أدب!

- لماذا العيب يا أستاذ رمضان؟ على العموم ...

- لا تكملْ كلامك يا أبا وليد! لا أقصدك أنت. أنا آسف. وهات يدك أبوسها أيضا.

- أستغفرُ الله. من لا يعرفك يمكن أن يكون له كلام آخر معك.

- لا تؤاخذني. الواحد شكله تعبان.

- ربنا يكون في عونك.

- لماذا لم يأتِ وليد للمدرسة أمس؟

- الأرض كانت عطشانة يا أستاذ رمضان.

- كان الله في العون.

أَوَصَلَ بي الأمر إلى هذا الحد؟! أشتمُ أناسا لم يوجِّهوا لي كلاما سيئا؟ وأكلِّمُ نفسي بصوت مسموع أمام الجميع؟ وفي السوق؟ حتى يراني كل الناس؟ ومن لا يعرفني سيسأل عني ويعرف، ومن لم يكن طالبا عندي سيكون قريبٌ له طالبا وسيعرف أنني كنتُ أشتم الباعة وأكلم نفسي في السوق؟!!

- خلِّهَا علينا هذه المرة يا أستاذ رمضان.

- الله يخليك يا أبا وليد ويبارك لك في رزقك.

لـو كـان غريبـا لكـان خلـع فـردة حذائـه وضـربني بهـا. الحمد لله أنها مرت هذه المرة بسلام. هكذا الشدَّة. يبدو أنك لا تضبطك إلا العين الحمراء. أصوات تخاف ولا تخجل! ها أنا فرغتُ من تنقية الطماطم. لماذا تخلط بين اسمي واسم أبي الآن؟ أبي مات وشبع موتا. نعم شبع موتا. وأنا أجوع حياةً. حلوة هذه يا رمضان. جوع الحياة وشبع الموت. لكن الموت لا يشبع. ربنا يكون في عون أولادك يا رشيد. كان من أحسن المدرِّسين. منذ أن مات في المراقبات وأولاده كاللقطاء. ومن معه فائضٌ أصلا حتى يساعد أولاد زميله؟ ما الذي جاء بسيرة الأموات الآن؟ آه تذكَّرتُ. ذلك الصوت الذي كان يخلط بيني وبين أبي. ربما كان أبي يريدني في شيء. على العموم مازال الوقت باكرا على موعد الفترة المسائية بالمدرسة. والحمد لله أن الجَبَّانة بجانب السوق. هيا ارجعْ إلى الباب وَلُفَّ حول السور.

- السلام عليكم يا أستاذ رمضان.

- وعليكم السلام يا أستاذنا.

- وصلت كشوف المراقبات إلى الإدارة.

- يا ليتها ما وصلت! سيذهبون بي إلى أسوان.

- وسيذهبون بي رئيسا للجْنَةٍ في بني سويف.

- يقولون إن مفتِّشًا جاء إلى المدرسة وفتَّش على الحمَّامات.

- وهل هؤلاء يهمُّهم شيء أصلا غير الحمَّامات وحنفيَّة المياه؟

- الدنيا انقلب حالها يا أستاذ رمضان.

- وسينقلب إلى أن يصل إلى نهاية الدورة بإذن الله.

- قل: "يا ربّ".

- يا رب.

- ألقاك في المدرسة.

- في الطابور بإذن الله.

ينقصنا أن يجيء المفتِّش ليفتِّش على الزبالة التي أمام قهوة "أولاد علي" بالسوق القديم! هاهاهاها. يا رجل انتبه لنفسك. ليس معقولا أن تقهقه هكذا وأنت لم تصل إلى الجبَّانة بعد. وهل معقول أن تقهقه في الجبَّانة؟ أناس غريبون حقا! على الأقل هناك لن يراك غير الله والموتى وكلهم يعرفون حَالَكَ. الموتى طيبون لأبعد حد. لن يتدخل أحدٌ منهم في كلامك مع نفسك ولا في قهقهاتك. أيموت الإنسان من الغيظ؟ على الأقل الذي يكلِّم نفسه أحسن من الذي يتدخَّل فيما لا يعنيه.

أيام! ولِمَ هذه القشعريرة في عزِّ النهار؟ ألم تقل لتوِّك إن الموتى طيبون؟ وَتَدَاخَلَ التاريخُ يا مدرس التاريخ. كأنه منذ ساعة. كانت أياما جميلة برغم الخوف والشقاء. أحنُّ إلى أرض الجبل الغربي. بعنا فدانا كاملا من أرض الشرق وطينها حتى ندقَّ ماسورة مياه في تلك الأرض. كما لو كنا في حرب استنزاف. لا ليل ولا نهار فرَّطنا فيه. محاربة الحصى والصخور والرمال ليست أمرا سهلا بالتأكيد. كنا يدا

واحدة. الأمل يصنع المعجزات. بدلا من ثلاثة فدادين سيكون عندنا عشرون فدانا. ومحصول الشتاء في الجبل أكثر بركة من عشرين محصولا في أرض الطمي. كان قفص الطماطم من الجبل في الشتاء بعشرة جنيهات. لكن أرض الطمي لا يصلح فيها الطماطم إلا في الصيف وكان قفص الطماطم كله بجنيه ونصف.

- ستُزْهِرُ الأيامُ يا أولاد عبد الهادي.

- وستظهرُ فروعُها أيضا.

- ربك لا ينسى عَرَقَ أحدٍ.

- ولا تنسَ الفدان الذي ضحَّينا به.

- وكانت ألسنة الناس تأكلنا ليل نهار!

- الذي يقعد في الأرض شرقا وينتظر أضعاف ما تقدر عليه الأرض كالمتغطِّي بالجمعية الزراعية أو بنك التسليف الزراعي في عزِّ الشتاء.

ـ المهم أننا مع بعضنا البعض وعرقنا لم تشربه الرمال.

ـ ستسقينا الرمال شهدا بإذن الله.

آه! كم صَاحَبَ طريقُ الجبانة هذا خطواتنا! هاهاها. كنتُ أنفخ صدري وأثبِّتُ صوتي:

- وما الداعي للخوف يا أولاد؟ ما عفريت إلا ابن آدم!

وكنتُ أنتفض من الداخل. لكن الحمد لله أن هذه الطريق لم تكن مُنَارَةً بالكهرباء في ذلك الوقت. وإلا لكانوا رأوا ارتعاشي الذي كنت أخفيه في الظلام. لمحته بطرف عيني على ضوء قمر شاحب يتسلل من المَزْيَرَةِ. كان ذلك الثعبان يرتع من الماء. وكانت أرض الجبل مَعْطَشَةً وكنا عطشانين. الواحد لا يهون عليه غيرُه مهما كان. وما ذنبه في أنه لم يرَ الثعبان مثلنا. وكل ذلك بجانب الجبَّانة. الليل والجبَّانة والثعبان والماء المُسمَّم وأولاد عبد الهادي ويا قلبي لا تحزن.

ـ وماذا سنفعل يا أولاد؟

- ليس أمامنا إلا أن ننزح ماء المزيرة.

- وربما كان هناك ثعبان آخر بها.

- وهل سيكون أصعب علينا من الطريشة والعقارب في الجبل؟

- ابحثْ عن أي فرع شجرة ألقته الريحُ.

- أي فرع شجرة في هذه الطريق المهجورة؟

- ليس أمامنا إلا تلك الشجرة التي تقف عند بداية الجبانة بجانب السوق.

- فلنذهبْ كلنا ونحضر فرعا منها.

- وإذا مرَّ أحدٌ وشرب من المزيرة؟

- فليظلْ أحدُنا هنا.

- ولماذا لا يذهب واحد ويبقى اثنان؟

- على الأقل هنا ثعبان وجبَّانة وعلى الطريق جبَّانة فقط.

ومشيتُ بمفردي قائلا لهما:

- قفا بعيدا عن المزيرة في وسط الطريق.

كنتُ أحس بأن هناك أحدا يحاذي شعيرات جلدي وكانت الشعيرات تقف. يا ولد تماسكْ. وماذا سيفعل لك العفريتُ؟ إذا خُفْتَ سَيَلْبَسُكَ. وما الذي يضمن لي أنني لن أخاف؟ الطريق مهجورة فعلا. وكل الكلام الذي سمعته عن الجبَّانات بالليل قد يكون صحيحا. اعتبرْ المزيرة جزءا من أرض الجبل واعتبرْ السمَّ بها عقربًا ستُطَهِّرَ أرضَك منه. كان صوت الريح موسيقى فرعونية جنائزية وكنتُ أرى نفسي محمولا على تابوت. مرَّ حيوان أسود بجانبي. أدرت عينيَّ بعيدا كأنني لا أراه واستعذتُ بالله. لم يختفِ. تذكَّرتُ حكاية ابن عمي عوض. كان يسير ليلا في الطريق بين بيت حمادة وماكينة المياه. رأى حمارا. قال لنفسه:

- أركبُه حتى البيت.

ولما ركبه ونغزه بقدمه، تطاول الحمارُ صاعدا نحو السماء كدخان حريق لا يدع فرصة لأحد ليطفئه. كان

مرعوبا وكان الحمار فَرِحًا بتطاوله. ولم يرجع للأرض إلا بعد أن نغزه بالمطواة. وعادت إليَّ أحاسيسي التي غمرتني عندما كنت راجعا من الجامعة ليلا. فبمجرد أن عبرتُ الكباري الثلاثة واقتربتْ قدمي من المكان الذي قُتل فيه أولاد عبد النعيم شعرتُ بشعر جسمي يقف تهيُّبًا. لم أرَ شيئا. لكنني أحسست بأشياء كثيرة. حاولت أن أقنع نفسي بأنني لا أرى شيئا أمامي. لكنها كانت محاولات ساكنة كمياه الترعة بجانب الطريق. حتى السمك لم أسمع لحركته صوتا. طردتُ فكرة الجري من رأسي. ربما لم يَرَوْنِي كما لم أَرَهُمْ. لكن الجري سيلفت انتباهَهم. ولم أصدِّقْ عيني عندما وجدتُني وصلتُ إلى دكان حمادة بالقرب من بيتنا.

نظرتُ ورائي إلى المزيرة ولم أرَ أخويَّ. وكانت الشجرة تتباعد كأنها أشباح تهرب مني. فرحتُ بالرغم من تباعدها. وأخذتُ أكلم نفسي. لم أترك نفسي للوقوع طويلا عندما لامس شيء ناعم قدمي. جريتُ إلى أن اقتربت الشجرةُ مني وارتميتُ تحتها غير مصدِّق أنني وصلتُ إليها أصلا.

والحمد لله أنني وجدت تحتها بعض الأغصان الناشفة. انتقيتُ فرعين كبيرين وشِلْتُ من عليهما الأوراق والأشواك والأغصان الصغيرة. وفي طريق عودتي أخذتُ ألوِّح بالفرعين يمينا وشمالا بكل همَّتي كأنني أحارب كل عفاريت الدنيا. ولم انتبه إلا عند وصولي إليهما. أمسك أخي بفرع وبدأ يحرِّكه ببطءٍ داخل المزيرة وكنتُ أمسك بالفرع الثاني حتى أضرب أي ثعبان قد يكون مختبئًا بها ويخرج عندما يلامسه الفرعُ الذي مع أخي. وعندما لم يخرج شيء، أمسكنا بالكوب الصفيح المربوط بالمزيرة وأخذنا نفرِّغ كل مائها. كان يوما جميلا ولم نحس بالتعب بالرغم من أننا كنا نشقى طوال نهار ذلك اليوم.

بارك الله فيه هذا الرجل أو هذه المرأة. مبرِّد مياه مكان المزيرة. الدنيا مازالت بخير. الحمد لله. لكنها مازلت بسوء أيضا. شخص يضع مبرِّدَ مياه وسط هذه الرمال ليشرب منه أناسٌ لا يعرفهم أو لا تعرفهم، وإخوتي أخذوا أرضي. يقولون:

- أنت تعلَّمتَ من خير الأرض ونحن شقينا فيها طوال عمرنا.

السلام عليكم يا أموات المسلمين. وهل أنا لم أشقَ فيها؟ كنتُ مثلهم. حتى طوال الدِّرَاسة كنتُ أقتطع من وقت مذاكرتي وأساعدهم. بارك الله فيك يا وليد وجنَّبك طَمَعَ إخوتك. وهل أنا الذي قلتُ لهم:

- لا تكملوا تعليمكم؟

هم الذين خرجوا من المدرسة. والذي يحزٌّ في نفسي أكثر أنهم حرموا البنات أيضا من نصيبهم في الأرض. أليس للبنتِ نصيبٌ في أرض أبيها شرعا وعدلا؟ لولا خجلهن لكنَّ طالبن به. ولولا أن أزواجهن محترمون لكانوا أجَّجوا في أنفسهن المطالبة بنصيبهن. اخشَ شرَّ القريب إذا طمع حقا!

وماذا أفعل أنا الآن؟ حتى البيت طردوني منه. يقولون:

- أنت موظَّف وشقَّة في جهينة أحسن لنا ولك.

أي شقة وما يجيء ربعُ ما يروح؟ أتذكَّرُ كل حصاة أزلتُها من تلك الرمال، كل حشرة وكل زاحفة قتلتُها. نريدها خضراء أرض الصحراء. أردتُها بكل نَفَسٍ يدخل أو يخرج، وتلهَّفتُ على المياه تسري فيها فَتُحِيلَ الرمالَ إلى أغانٍ خضراء. وهل هم استلموها جاهزة؟ لا تجعلْ إحساسَكَ بالعجز يُعْمِيكَ. كانوا مثلك. وفي وقت مذاكرتك وأنت تتمتع بالخضرة والماء شرقا، كانوا هم في الجبل الغربي لا يكلُّون. ألا تذكر فرحتهم عندما عادوا حاملين ثمار القاوون أول ما طرحتْه الأرضُ إلى البيت والجيران شرقا؟ ألا تذكر سخرية أولاد عمك:

- أبعتم الطين هنا لتعودوا بشمَّامٍ صغُرَ إلى أن صار في حجم الطماطم؟

وردَّكَ على أبناء عمك:

- أتريدون من أرض لم تشرب الماء طوال عمرها أن تعطيكم ذهبا من أول مرة؟

كان أحلى قاوون ذقناه في حياتنا ولم ننم طوال الليل لفرحتنا به.

إلى أين أنت ذاهب؟ حتى قبر أبيك تركته وراءك وها أنت تصطدم بسور جبَّانة النصارى؟ ليست هذه أول مرة اليوم وتلك علامة ليست حسنة. لثالث مرة اليوم تخرج عن الخط. هل ستتوه وسط هذه الجبَّانة التي لا تبرز فيها معالمُ؟ هيا استدرْ يسارا إلى أن تصل إلى باب جبَّانة النصارى. عنده ستعرف طريقك. أعطِ ظهرك للباب مباشرة وسرْ. بعد ثلاث حَوْزَاتٍ ستجد حوزة أهلك.

هل تنقصني هذه المقبرة التي لم تكتمل؟ وماذا لو ترك أهلها حوزتهم مكانا للقبور بدلا من هذه المقبرة التي تركوها تنخفض عن مستوى الأرض دون أن يغطُّوها؟ يا الله. لا يجوز إلا الدعاء في هذا المكان. أمعقول أنني نسيتُ الصبَّار دون ماء؟ أمعقول أنني لم أجئْ إلى هنا منذ فترة؟ لا بد أن إخوتي لم يعطوا الحفَّار "سنويَّتَه" من المحصول. ليس هناك سبب آخر في أنه لم يروِ الصبَّارَ بالتأكيد. اللهم لا تجعل

مصيرَ كلِّ هؤلاء الشَّقاءَ في الآخرة كما كان نصيبهم الشَّقاءَ في الدنيا. اللهم طهِّرْ قلوب إخوتي من الغلِّ والحقد والطمع والجشع. وأنت أيضا يا أستاذ التاريخ أمتأكد تماما أنك لست في حاجة للتطهير؟

كيف حالك يا أبي؟ هل تتصوَّر أنني تهتُ عن قبرك؟ أسمعك تقول الآن:

- أعرفك يا ولدي. دماغك ليستْ فيك. دماغك في الكتب التي لحستْ عقلك.

ويا ليتها لحسته بفائدة! المهم كيف حالك؟ أتمنى أن تكون أدعيتي تصلُكَ بانتظام. يبدو أنها لحست عقلك تماما. أفقْ.

راوية ستدخل الجامعة هذه السنة بإذن الله ومازن في الصف الثالث الثانوي. لا يذكرونك لأنهم لم يروك، ولم يعيشوا معك في البيت الشرقي الذي بعناه بعد موتك لنكمل استصلاح أرض الجبل. لكن صورتك أمامهم ليل نهار. يستغفرون لك ويستمعون لحكاياتك منِّي. لا أدري ماذا أقول

لك. انقلب حال الدنيا. لم نعد كما كنا. كل واحد منا صار مشغولا بنفسه وبعياله.

أخجل من زوجتي وإخوتها. لا يقصِّرون في شيء. بمناسبة وبغير مناسبة يزورونا ويحضرون معهم ما لا أستطيع أن أردَّه. والله العظيم يا أبي لا أستطيع أن أردَّه. كل شيء: أَكْلٌ وملابسُ وحتى الفلوس يدسُّونها في يد أختهم كأنهم مسئولون عنها وأنا ليس بيدي شيء. وعندما يمشون تضع الفلوس في يدي كأنها تسلِّم عليَّ. لا أستطيع أن أقبل ولا أستطيع أن أرفض وأظل جالسا في نصف ملابسي خجلا منها. ربنا يحرسها ويحميها. لم أسمع منها يوما كلمة خارجة. تُرَبِّتُ على يدي دون أن تتكلم وفي النهاية أودُّ لو أقبِّل يدها. ولكنني أظل جالسا ولا أستطيع أن أرفع وجهي لوجهها. فترفع وجهي وتقول لي:

- فَرَجُ ربنا قريب.

منذ أن تزوَّجت وإخوتي قالوا لي:

- كفاك أنك تعلَّمت وتزوَّجت من الأرض والباقي لنا.

أيرضيك هذا يا أبي؟ قل لي. حتى أخواتي حرموهن من الميراث بحجَّة أنهن تعلمن وتزوجن منها ولهن أزواج ينفقون عليهن.

لا أدري كيف أقول لك ذلك. لا تؤاخذني. الماضي يلعب دورا أيضا. عندما كتبتَ لكلٍّ منهم فدانا له باسمه، طمعوا. بعدما رحلتَ قالوا لي:

- لك الزواج فقط. سنبرئ ذمَّتنا أمام الله ونزوِّجك.

واقتسموا الأرض والبيت وأخرجوني أنا والبنات خارج الحسبة. أخشى الفضائح. كلام الناس خناجر يا أبي. لم أُرِدْ أن أشوِّه سيرتك. هل كنتُ سأتعارك معهم وتصير فضيحتنا بجلاجل؟ قلتُ:

- ربنا يهديهم.

قلتُ:

- إخوتك، والدم الذي لا تريده أن يكون ماء ربما يعود دما مرة أخرى.

قلتُ:

- هم تعبوا أيضا.

قلتُ:

- لا تتعارك معهم حتى يصير بيت أبيك مفتوحا ويستقبل الضيوف.

وحتى الضيوف يا أبي ما عادوا يذهبون إليهم. عندما تجيء ذكراك السنوية التي كنتُ قد اتفقتُ معهم على أن نحييها بالبيت، يتقطَّع قلبي حزنا. فلا هم أقاموا ذكراك ولا أنا بقادر على أن أحييها في شقتي الضيقة. وما فائدة الذكرى ما لم يجتمع الأهل والجيران كلهم في بيتك ويأكلوا من لحم البهائم التي نذرناها صدقة جارية على روحك؟!

"يا رمضان".

رمضان مَنْ الآن؟ يا رجل استحِ. نحن في الجبَّانة. ألا تراني أجلس مع أبي؟ الواحد لا يدري ماذا يفعل؟ المرات السابقة كنتُ أسمع اسمي واسمَك في أذني وجئتُ إليك. وها

أنـا الآن أسـمع اسـمي فقـط. الواحـد جـالس علـى أعتـاب دار الحق أيضـا. ولا أظـن أنـه صـوت الشيطان. الصـوت السـابق ذكَّرنـي بـك. لا تغضـبْ منـي يـا أبـي. الـدنيا مشـاغل أيضـا. والواحـد دماغـه حمَّلـت مثـل تلـك الكهربـاء التـي يقطعونهـا لتخفيـف الأحمـال. وهل يقطـع الواحـد رأسَـه؟ أعـوذ بـالله مـن الشيطان الرجيم. المهم نرجع لموضوعنا. ماذا كنا نقول؟

السـنة الماضـية جلسـتُ أنـا والعيـال فـي الشـقة نسـتمع لصوت عبد الباسط عبد الصمد ولم يدقّ أحدٌ منـهم حتـى علـى الباب. لم يبعث أحد منهم مرسالا يقول بأنهم سيحيون ذكراك. والله العظيم يا أبي عندما يراني أحدهم في السوق القديم يـدير وجهـه للجهـة الأخـرى كأنـه لا يعرفنـي ولا يرانـي. وأحيانـا ينظـر فـي وجهـي ولا يرانـي. ذهبـتُ إلـيهم السـنة التـي قبلهـا وقلتُ لهم:

- ألن تحيوا ذكري أبيكم؟

قالوا لي:

- من مات الله يرحمه.

قالوا:

- الحي أبقى من الميِّت.

قالوا لي:

- رُحْ لتنصب صوانا بالسوق القديم وأحيِ ذكراه من فلوس مكافأة الامتحانات.

وهل يُحْيِي أحدٌ ذكرى أبيه في شارع بعيدا عن بيته؟ وكيف تكون الذكرى بعيدا عن لَمِّ الشمل وصلة الرحم؟ ماذا أقول؟ كَثُرَ الكلامُ وخَجِلَ اللسانُ يا أبي. ودارِ الحق التي أنت فيها يا أبي مكافأة الامتحان لا تكفي كسوة العيال ومصاريف المدارس. العيال لهم حق عليَّ ولا يمكن أن أتركهم منكَّسي الرؤوس وسط زملائهم. وبنت الناس لا تقصِّر في شيء. وطوال عمرها معي لم تقل كلمة ملتوية ولا حتى نظرت نظرة متَّهِمةً ولا شاكية. قُلْ لي ماذا أفعل. الواحد دماغه أوشكت على الشَّلل. ومصاريف العيال زادت. والذي ليس له خير في رزقه الحلال ليس له خير حتى في نفسه. وأنا رزقي الحلال محرَّم عليَّ. كأن وظيفتي الجنةُ وأَرْضِيَ النارُ. والله يا

أبي لو أخذوا الوظيفة وأعطوني نصف نصيبي في الأرض سيكون أحسن لي. أي وظيفة وأي مشاكل في هذا الزمن؟

"يا رمضان".

"الله أكبر الله أكبر".

فأل حسن. لا أظن أن الصوت الذي ينادي اسمي شيطانٌ وها هو الظُّهْرُ قد أذَّن. أيكون ذلك الصوت يُلْفِتُ انتباهي لأذهب إليَّ؟ وهل أنا غائب عن نفسي أيضا؟

"نعم غائب".

نعم؟! لا أظن أنني قديس أو وَلِيٌّ ولا أظن أنني صَفَوْتُ إلى هذه الدرجة. صوت مَنْ ذلك الذي يردُّ عليَّ؟ الأموات يسمعون فقط. لا يتكلمون مطلقا. أدرك تماما أن أبي يسمعني الآن وربما يتعاطف معي وربما يلومني. لكنني سمعتُ صوتا ينادي اسمي وسمعتُ صوتا يؤكد غيابي! يا الله.

أَتْرُكُكَ الآن يا أبي. أناس كثيرون يتجمعون عند الجامع الذي بأوَّل الجبَّانة. يبدو أن أحدا مات. سأذهب لصلاة الظهر

والجنازة. سنكمل كلامنا لاحقا. كما أن المدرسة الساعة الواحدة.

"يا رمضان".

هل تَحَبَّكَ الأمرُ الآن أيها الصوت؟ ولماذا عند المدرسة؟ سبحان الله. ربما كان الصوت يريد أن يذكِّرني بشيء. وربما يريد أن يلفت انتباهي إلى ما لم أنتبه له. وما المانع في أن يكون صوتَ أبي؟ هل سأعود إلى الْلَخْمَةِ وثِقَلِ الرأسِ مرة أخرى؟ الواحد حمد ربنا على أن كلامي مع أبي خفَّف أحمال رأسي كثيرا. الحمد لله أنه لم يقطع كهرباءها. يبدو أنك تريد أن تضحك يا رمضان وتقلق سكينة الموتى. مدَّ خطوتك قليلا، فصلاة الظهر أوشكت على الانتهاء. الحمد لله أنه التوقيت الشتوي الآن وليس الصيفي.

"يا رمضان".

ما الذي نسيتُه؟ ما الذي لم أنتبه إليه؟ لماذا جئتُ إلى هنا أصلا؟ نسيتُ أن أسقي الصبَّار. لكن لا أظن ذلك هو السبب. الصبَّار يتحمل العطش كثيرا ولن تفرق معه إن

انتظر إلى الغد حتى أجيء له بالماء. كيلو الطماطم في يدي. لا أستطيع أن أنساه أصلا وهو الذي دوَّخني التدويخات السبع في السوق.

"يا رمضان".

عرفتُ يا سيدي عرفتُ. الطماطم. أرضي. الوظيفة. كلام الناس. كلام الشيطان. دار الحق. لا. لستُ أخرسَ. نعم حقي. لكنني لستُ أخرسَ. ليس معنى سكوتي أنني بلا لسان. لي يد ولي لسان. ولي كل ما يمكِّنني شرعا من حقي. لكن الفضائح لن تكون نيشانا على صدري. نعم. نعم. من خشي الفضيحةَ مات. ومن قال لك بأنني سأموت بسببها. والله العظيم أخزقُ عينيَّ الفضيحة بإصبعي. ليس لأحد فضل عليَّ سوى الله وأقارب زوجتي. نعم نعم. عندك حق. لهم فقط الفضل. وحتى لو كان كلامك صحيحا وإخوتي لهم أعذارهم، لن أسكت. سأفعل الكثير طبعا. الودُّ أولا. سأذهب إليهم بكل أدب وصلة رحمٍ وأطالبهم. لا. لستُ في حاجة لأن أشرح ظروفي لأحد. لن أتسوَّل حقي يا عم الشيخ. لا تنسَ أنني

حتى الآن مدرس تاريخ. والله ممكن. الأرض أولى. على الأقل سأجد ما آكله بعد أن أزرعه بيدي. يا سيدي أي راتب وأي مكافأة في هذه الأيام؟ دولٌ الأيامُ أم غير دولٍ هذا حقي. وبعد كل ذلك مركز الشرطة ليس ببعيد. كلها شكوى بخط يدي. لا أحد عَلِمَ لا أحد افْتَضَحَ. وكل واحد يعرف حدودَه. ضع كيلو الطماطِمِ فوق هذا السور. لن يسرقه أحد في هذا المكان. ولماذا المغامرة؟ إن كانت حوائط الجوامع وزخارفها تُسرق كل يوم، فبسهولة جدا يمكن أن تخرج ولا تجد هذا الكيلو المُرهِق. لا فضائح ولا أي شيء. وكلام الناس لن يُنْقِصَك شيئا. سأضعه أمامي في الصلاة. ضاعت مني صلاة الظهر وفي صلاة الجنازة يمكنني حتى أن أضعه أسفل قدميّ. دعني الآن أتوضأ. تعال توضأ معي. والأجر أجران بإذن الله. الله أكبر.

(20-28 أغسطس 2010)

جلسة عرب: "قصة شعبية"

هل أنا فاضٍ لذلك؟ عندما أجيء تقولُ لي:

- خُذْ هذا الولد معكَ.

عندما تخرج لقضاء مصلحة، أليس من الممكن أن يباغتَكَ مشوارٌ وأنت في طريقك؟ في رمضان الماضي، ألم نكن نفطر سويا؟ واتصلوا بك وأنت تشرب الشاي، هل أكملت الشاي يا أبا العم؟ والله العظيم بعدما كنتُ عندكم شرقا، يوم الجمعة، كما أمس، وجلستُ كجلستكم هذه، أختك قالت لي:

- عندما تخرج خذ هذا معك. الولد يضرب إخوته وأخواته ليل نهار.

لا أتحمل أنا ذلك يا دكتور. والله العظيم من يسكن في هذا الجبل مثل الحلاق السيئ.

أتسألني عن أختك؟ يا أبا العم الأخرى بلوى أيضا، أنت تصمِّم على شيء، هي تقلبُ الميزانَ معك مباشرة. أنا

كسَّرْتُ رسيفر التليفزيون أول أمس لأن حمادة يجلس أمامه حتى الصباح ولا يصحو مبكرا ليعمل معي في الغيط، وهي كانت تصر أمس على أن تبيع النعجة الخاصة بها والعيال لكي تشتري رسيفر بدلا منه، "المليحة" تريد أن تتفرَّجَ. قل لي ماذا تفعل لو كنت مكاني وقالت لك ذلك؟ قلتُ لها:

- يا بنت العم اذهبي واجلسي بعيدا، لم يتبقَ غير التليفزيون لنشغل به بالنا!

يمين كبير هذا هو الحاصل، أنا لا أتحمَّل.

أتتوقع أن يكون موجودا؟ هرب عندما رآكم قادمين. ربما تجده عند "الاريال القبلي"2 هناك. والله العظيم يوم "كَتْبِ كِتَابِ" بنت الحاج محمود كنت جالسا على الترعة، أقول لك حاجة والكلام لك وللجميع، أنت تحسب حساب نفسك، كنت أجلس على الترعة، بين المغرب والعشاء، عندما توفَّى الحاج، قبل ذلك قال لي:

---

[2] الاريال طبعا هو اريال التليفزيون. وعندما يطلق على شخص يدل على أن هذا الشخص ينقل الكلام أو يثير الفتن والخلافات أو لا يؤتمن على شيء.

- الهِمَّةُ قليلا".

- ما الحكاية؟

- ربما كان أحد يموت.

- الذي يموت الجبانة مفتوحة.

جريتُ، وجدتُ ولدَ منصور يتَّصِلُ، لا أدري إن كان يتصل من عندكم أم يتصل من أين، نعم، مؤمن، قال:

- الحاج مات.

ممكن أن تُحضر "فِرَاشَات" الدنيا كلها وتنصبها أمام منضرة العائلة، لكن هل ستجد أحدا من العائلة أو الأقارب يقف بجانبك؟ أليس ذلك هَدًّا للكرامة؟ الموضوع ليس أكلا أو شربا. ماذا تفعلون يا "أولاد"؟

- حسنا، يا مؤمن اتصل من عندك؟ من أين تتصل؟

- أتصلُ من "بحري"3.

- خذ أي تليفون محمول من الجماعة عندك.

---

[3] تستخدم في جهينة الاتجاهات الأربع لتحديد الأماكن وفي الوصف.

- حاضر يا عم.

- قل له يطلب لك الرقم، وكلمهم، لا يهمك حتى إن "رغيت" ساعة في التليفون. اتّصل وتبيّن الموضوع وخذ العنوان كاملا.

[أحضرَ العنوانَ.]

- ها هي أختكَ جاءت.

- اقعدي يا بنت الناس.

- "طاب" الموضوعُ.

[خَبَّطْتُ على باب القط أخي.]

- هل تسافر يا عم؟

- والله أنا دمي ثائر في وجهي.

لبستُ جلبابي ووضعتُ الفلوس في جيبي وقلت:

- سهلة إن شاء الله.

أخذناها مشيا حتى السوق القديم. اتصلنا بجماعتنا شرقا، قالوا:

- سنجيء لكم على السوق القديم.

جلسنا على المقهى حتى الحادية عشر ونصف، وذلك الساكن جنوبي قال لي:

- هل ستغرّب؟

- لا.

انتظرتُ من سيجيئونني ولم يأتِ أحدٌ. هل سأذهب بمفردي؟ وإن ذهبتُ لن أجد رجلا يقابلني. هو حقًّا عمي، ومن المفروض أن أكون أول شخص في جنازته، لكنها زوجته. كان مريضا منذ شهور، لم تتصلْ بنا، وها هو طلب منها قبل موته أن يُدفن في مقابر حماه في البساتين. إن كان لم يفكر فينا أصلا قبل موته؟ نعم عمنا. لا أحد ينكر. لكنني كنت أزوره كل فترة. لم نعرف بمرضه هذا إلا عندما كلَّمهم مؤمن وعرف القصة. ممكن أن نكون قصّرنا في حقه. الدنيا

مشاغل يا أبا العم. إذا جاء أحد ليوجه إليك ملامة يمكنك أن تلبسه "العِمَّة". إن كان أعمامي لم يحضروا، وظللت أنا في السوق القديم حتى آخر الليل؟ من منهم ابن عمه، من منهم ابن أخيه. جاء منصور وجلس قليلا، لكنه ماذا يفعل بمفرده؟ يفترض أن نتحرك كعائلة كاملة نحو جنازة عمنا. المهم جلسنا غرب البيت وجاء إلينا كامل، قال للولد الصغير:

- هات لي يا مصطفى كوب ماء

الآن شخص جاء يطلب ماء هل تقول له: عمي مات؟ يشرب أولا الماء والشاي، ثم نطرح الموضوع، كما أن الحاج كامل يسير ورأسه على الطريق، لا يلتفت يمينا ولا يسارا، ربما لم يرَ جلستنا. لو نادي على أحد يظل واقفا غرب تلك "النبقة" البعيدة، كأن تقول يحافظ على نفسه. المهم بعد أن شرب الشاي قلت له:

- يا عم كامل الموضوع، عمي مات في أسيوط ونقلته زوجته إلى القاهرة ولا أحد يعلم شيئا، وليس به أي اعتراف في جهينة. صحيح أنه من جهينة لكنه استقر

في أسيوط منذ أربعين سنة، لا أحد يعرفه هنا، لا يعرفون سوانا. هل إن طُفْنَا البلدَ بالميكروفون على السيارة وأذعنا خبر وفاته وقلنا العزاء بالقاهرة – هل سيحضر أحد؟ ستأكل الناس وجهنا بلا مقابل. وستأكله و"تمصمص" عظامه إذا أعلنَّا أن العزاء هنا وهو دُفِن في القاهرة ليلة أمس.

لم نفعل شيئا. جاء يوم الاثنين ووجدت الدكتور عدلي غاضبا، قلت له:

- ما الأمر؟

[لا أريد أن يمسك أحد عيبا عليّ.]

- عمك توفى.

- عمي مَنْ؟ هل اعترف بي أصلا؟

طبعا يوجد كلام "ناشف" لا مفر منه يضايقك رغم كل شيء.

انسَ ذلك كله. جئت من الشرق يومها وكنت قد جلست للتو، قالت:

- عندما تذهب إلى مكان خذ هذا معك

وأشارت إلى حمادة. سكتُّ. جاء ضيف هنا. قلت له:

- اذهب يا حمادة هات زجاجة "حاجة ساقعة" وعلبة سجائر.

لم يذهب. إذا قلتَ له:

- اذهب هات "باط جراو" للبهائم.

كأنك تكلم ميِّتًا، يسمعك ولا يرد عليك.

- اذهب أنت يا مصطفى.

ذهب وأحضرهم. قالت أختك "المليحة":

- إن كنت ستذهب إلى مكان خذ هذا معك.

- لماذا؟

- كان سيجعل مصطفى يشعل النار في نفسه.

رُدَّ أنت يا أبا العم حتى تعذرني إن انحنيتُ وأخذتُ الترابَ من تحت قدمي ووضعته فوق رأسي. عملتُ معه "شَبُّورَةً" في المساء.

- يا بني ربنا يهديك. بدلا من ألا تقضي مصلحة...

كذلك في الشتاء، كانت تخبز هي وهو. في خلال نصف ساعة خسّروني ألفين ونصفا. أنا لا أملك شيئا. ليس معي غير "شقائي". ترمي عشرة آلاف في الأرض. ربما ترجع إليك. ربما ترجع منها مائتان جنيه. والله يمين كبير يمكن ألا تأخذ منهم شيئا، وتشرب الرمالُ تعبَكَ. وضحكُ الناسِ مكسبٌ.

كانت تخبز. كان هناك عدد من أكياس المكرونة والشعرية. أخرجهم حمادة أفندي من "الخوخة" التي نحفظهم فيها كي لا يقربهم خروفٌ أو ماعزٌ. هو يتصرف بطريقة "لَيِّ الذراعِ". أخرج الأكياس ورماها أمام المطبخ هنا. قال:

- لن أرفعهم.

هي لم تهن عليها "رَصَّةُ العيش" في الفرن. دخل الخرفان. والله العظيم كان فيهم خروف يساوي ألف جنيه ساعتها. واحد مات. الثاني لحقه وشالوه ورموه من تلقاء أنفسهم في الغيط شمال البيت. كنتُ أحسبُ أسعارهم. هذا سأشتري به كذا. وذاك كذا. والثالث وجدته بعد أيام ميِّتًا على الأرض. كلَّمْتُها بعدها بأسبوع قالت لي:

- الخروف رميناه في الترعة.

هل أنا عندي جسم يا عبد الواحد يتحمل ثلاثة خرفان يُلقون في الترعة؟ الأب يُثْقِلُ عليك. الأخ يُعَيِّشُكَ الويلَ. الأم لا تقف حتى على الحياد. الزوجة تُخْرِجُ عيونَكَ. وبعد كل ذلك يجيءُ الولدُ ليُخْرِجَكَ من دِينِكَ. هل الطينُ ينقصه البللَ؟

- يبدو أن فمَكِ يأكُلُكِ. هاتي الكلمتين الآكلتين في فمك

- قل لي ماذا أفعل معه؟ أتُصَدِّق وتؤمن بالله؟ حمادة يجلس الليل بطوله مع عمه ممدوح. يشاهدان التليفزيون. عمه ليس لديه أطفال. كل فترة يبيع قيراطا

من أرض المباني ويشتري به حشيشا. يظل طوال الليل يلف السجائر.

- هل يعجبني أن أرى ابني في الصباح أحمر العينين دائخا ؟! تكلمه فلا يجمّع كلاما يرد به عليك؟

- وهل يعجبني أنا أن يضيعَ ابني أو يَتْلَفَ؟

أمس كنا جالسين، وهذه عن قصد تقول له:

- اذهب أصلح الرسيفر يا حمادة، معي خروف خذه وبعه ومن ثمنه أصلح الرسيفر.

- عليّ الطلاق لا أنت ولا خروفك تبيتان في البيت. لم أعد أحتمل. بلا خروف، بلا عجل، بلا أي شيء. لا أنت ولا خروفك تلزمانني.

أنتم مرتاحون يا أبا العم. والله العظيم يا صلاح أنا ساكت لأنه لا داعٍ للكلام. نهض حمادة وارتدى ملابسه والحذاء والجورب. لا أريد أن أكلمه. قال إنه سيذهب إلى السوق القديم للحلاقة. كل ثلاثة أيام يذهب للحلاق. يأتي

زملاؤه ويقولون لي إن حمادة يقف في السوق القديم أو أمام مدرسة الزراعة يعاكس البنات. هل أتحمّل أن يأتي لي أحد برأسه لأنه عاكس بنته أو فعل شيئا بشرفها؟ هل أتحمَّل؟ قل لي يا أبا العم. قلت له:

- يا ابني هل تعاندني أم تعاند نفسك؟

دمي فائر. الولد عمه مات، وحتى لو كان عمه هذا كلبا، لا يصح أن يشغّل التليفزيون هكذا، سيقول الناس إنهم يفرحون في وفاة عمهم، أو يقولون إنهم عائلة "واطية" لا يعرفون الأصول. تقول له كلاما كثيرا، وكأنه لا يرى عِبْرَةً، لا يسمع كلاما. كلَّمَتْنِي هذه المليحة مرة أخرى عصرا في موضوع الرسيفر، قلت لها ما أنا فارغ لكلامها الماسخ. قالت:

- لا، يا حمادة خذ الرسيفر وأصلحه، وإن لم يكن صالحا اشترِ واحدا غيره، وإن تكلم جار سأفعل ما لا أدريه.

رد أنت يا باشا عليها، ماذا تقول لأختك لو كنت في الموقف؟ أأرسلها إليكم؟! ليست معي عشرة جنيهات أعطيها للسيارة كي توصلها إليكم. انظر يا عبد الواحد. لا في "الملقة" شرقا ولا في الجبل هنا، أنا كل شيء من الإبرة فصاعدا. والله العظيم لا صابون ولا حتى الكحل الذي تكحل به عينها، لا مؤاخذة، أنا همجي جدا. الحلّة، المفراك، المَجَرّ، النشّابة[4]، والله العظيم يا أبا عبده، الكبريت أحضره بالدستتين. والله العظيم أشياء تُغْلِي دمك غضبا عنك. قل لي لماذا تتزنتر إذا؟

- أنا لا أتزنتر، هل يصح أن يكسّر الرسيفر ويجري وراء الولد في الأرض البور؟ أنا لو الولد نام في منطقة مهجورة غاضبا و"لبسه" عفريت من سيحضر لي ولدا مكانه؟

- هل أضرب ولدي بالفأس وأُدخل فيه السجن وتظل الناس تعيّركم به وبي؟

[4] من أدوات المطبخ.

والله العظيم ودمي يسيل مثل هذا الشاي، منذ ما قام إخوتي وأبي بقتل المرحوم محمد بالفأس والخشب دون أن يخشوا الفضيحة، وهذه ليس عندها أي صنف من الدم، منذ أن توفي المرحوم محمد يوم 30 مايو 1992، والله العظيم بيتنا كله ليس له كرامة خارج العائلة، كي تكون مستريحا وفي الصورة، هذه نهاية الكلام كي نقفل الموضوع، ذمِّمْها أختك هذه، منذ ذلك اليوم لا أحد يرسل لنا في مأتم، لا أحد يرسل لنا في فرح. ما دُمْتَ ليس لك خيرٌ في أبيك ولا في ولدك، هل لك خيرٌ في أحدٍ آخرَ؟ أنا ليس عمري 80 سنة، كل عمري 50 سنة، والله العظيم يا رجل لم يتبقَّ لي ضِرسٌ أو نابٌ واحدٌ، لأنك كلما تحكي حكاية... الناس تضرب بنا المثل، كلما يحدث شيء يقولون مثل أولاد الزُعمان. قل ذلك لهذه التي لا تمتلك أي صنف من الدم يا أبا العم.

- أيجلس ليُحَزِننا نحن على عم عوض؟ ماذا فعله لنا عم عوض؟

- أنا لا أُعَدِّدُ، لا أُحَزِّنُ على أحد.

- صلُّوا على النبي.

- عليه الصلاة والسلام.

- الصحيح صحيح والخطأ خطأ. لو مرَّ رجلٌ بجانب البيت وسمع التليفزيون وكان يعرف أن عمك مات منذ يومين، ماذا سيقول؟

- سيقول ناس ليس عندها أي صنف من الدم.

ذلك الرجل لديه مما سبق ما يجعله يحكي عنَّا تلقائيا، وينتظر شيئا إضافيا ليساعده على الحكي. الأرض بائرة لأن الغاز ارتفع سعره وموتور المياه لم يُصلح بعد، يقول الناسُ إن أرضنا الأرض الخراب، يمرُّون فيها كأنها طريق، من جميع أنحاء جهينة تجد ناسا يمرُّون، من "رُبْعِنَا"[5] أو الأرباع الأخرى، تَخَيَّلْ ذلك والتليفزيون صوته يصل إلى عواميد الضغط العالي غربا! قلتُ له:

- يا ولد أغلق التليفزيون

---

[5] تنقسم جهينة إلى أربعة أرباع: بنو رماد، أبو خبر، أولاد أحمد، حسام الدين.

- يا ولد اخفض صوته

- يا ابني الناس يمرُّون بجانب البيت.

كأنه لا يسمع شيئا، يجلس على هذه الدِّكَّةِ، وتجلس هي على الدكة الأخرى. قل لهم عندما مات المرحوم محمد، لم أكن موجودا ساعتها، تتذكر أشياء كثيرة وتتداخل ببعضها البعض، لما يكون هناك دُمَّل في إصبعك، هل تذكر لما وقعتَ أنتَ من على "العجلة"؟ الناس مقامات، الكل قال إنك تهشَّمْتَ تماما وجاءوا ليطمئنوا عليك. ثلاث خرفان ماتوا مني في الشتاء. لو كان معي مالٌ أو وجدتُ فرصةً لكنت نصبت لهم صوانا وتلقَّيْتُ العزاءَ فيهم. يمين كبير لما موّتوا المرحوم محمد، صاحبنا استيقظ وأخذ الجرّار وذهب ليحرث في غيط الحاج عبد الرحمن وكأن شيئا لم يكن، ربنا يعلم ما قاله عليه الحاج عبد الرحمن في سِرِّه، وصاحبتنا استيقظت في الصباح وجهّزت مخروطة للإفطار.

- أختنا؟

- لا، ليست أختكم، بل زوجة القط.

أنت تعرف أن العيب لا يضعونه على المرأة بداخل البيت. العيب يلصقونه في وجه الرجل. بعد أن أكلوا المخروطة، جاء محمد عبد الرحمن، خرج له "المليح"أبي، ولما قال له:

- نادِ لي محمدا.

- تعال شوفه بنفسك.

كان يرتدي سروالا وفانلة حمراء و"صديريا".يا أبا العم من عنده كتكوت ميت يحزن عليه. دخل ووجده غارقا في دمه والخشب بجانبه ملطخا بالدماء.

- يبدو أنكِ لن ترتاحي قبل أن تقولي ما في فمك. قولي كي ترتاحي.

- أريد أن أقول... هل تربية الولد عليّ أم عليه؟ عن إذنكم أقول قولة. ماذا أفعل؟ أيكون أبوه عليه وأنا عليه؟ أمامه سنة وإن لم ينفع في المدرسة أو في الغيط يذهب ليعيش في بلد آخر، يعمل عملا آخر.

- وهل ستكونين سعيدة لو زوجك جاءت له جلطة؟

- فأل الله ولا فألك يا أخي. لن يسعدني طبعا أن يطبّ ساكتا من الحزن. ربنا يبارك لنا فيه ولا يسكت له حِسّ.

- آمين يا رب. ويبعد عنكم العين.

شوفوا يا أخوال العيال، تعرفون أن لنا غيطا شرقا من الطريق إلى الطريق، والله العظيم بِيعَ عمدا، كنا نزرع أكثر من عشرة فدادين، ويجيء أبي في نهاية الموسم ليقول إنه يدين لعوض عنيزة الذي لا يملك سوى نصف فدان بثلاثة آلاف جنية. أتكون في شقاء طوال السنة ولا تمتلك ثمن فانلة، لا تجد لقمة في البيت لتأكلها؟!!! كل ما يفعله المرء لنفسه. لا أستطيع أن أذهب إلى فلان وأقول له:

- أعطني ألف جنيه.

سيعطيك مرة وفي المرة التالية لا. يمر شهر وراء شهر وراء شهر ولا أستطيع أن أسدد له. سيقول اعتبرها لله،

اعتبرها ضاعت، لكن إن وجدك مفروما تحت عجلات القطار لن ينظر إليك. أليس ذلك صحيحا؟ دعنا نضرب مثالا. نحن هنا في الجبل. زرع الجبل يا أولاد يُكَسِّبُ مرة ويُخَسِّرُ عشر مرات. وإن انقلب عليك السوق وفرَّ للوراء، انسَ نفسك. والله العظيم، منذ أربع سنوات، كل ما جمعته من فدان بصل 200 جنيه، كنت أخلع البصل وأرميه للبهائم، وظل منه 4 أطنان، أخذهم التاجر بـ 650 جنيها، أعطاني 200 ومازال الباقي عنده إلى يومنا هذا. نقلة السباخ التي تراها في مقطورة المحراث ثمنها 140 جنيها.

- هاتي ما عندكِ:

- أنا لا أُعَصِّي حمادة على أبيه، لكن إذا ضغطنا كلنا عليه سيترك البيت، وساعتها سنحزن عليه كلنا.

- وهل تملكين أنت شيئا أصلا؟

- نعم أملك. معي خروفان ومعزتان. لن يحدث شيءٌ إن بعنا واحدةً واشترينا الرسيفر.

- هل توقفت الدنيا على الرسيفر؟

- على الأقل سيلمُّ العيالَ حوله.

والله العظيم هناك عيال أمام مستودع البوتاجاز، يعمل معك الواحد منهم باليومية ويظل معك في الغيط إلى الساعة العاشرة مساء. الواحد منهم يخرج من بيته "على لحم بطنه"، لا تجد فرنا تُدَخِّنُ عندهم[6]، ويظل معك يعمل طوال النهار وجزءا من الليل من أجل "يوميته"، يعمل معك كما القطار، تقول له:

- ألم تفطر؟

- (يسكت).

- هل أُحضرُ لك إفطارا؟

- نعم يا عم جمال.

6 أي لا يخبزون خبزا لأنهم لا يمتلكون المال الذي يشترون به الدقيق.

والله كان حمادة يمسك الخرطوم ويضرب به إخوته وأخواته، كاد يجعل مصطفى يشعل النار في نفسه. أمس عصرا كانت تنادي عليّ.

- ماذا تريدين الآن؟ والله العظيم أحلف عليكِ يمينا إلى يوم الدين لا أريدك. ما أنا بفارغٍ لك. أتريدين أن تحضري رسيفر وأجيء أنا لأجلس وأتفرج بجانبك ونترك كل شيء؟! أبالعناد؟ يمكنني أن ألقي عليك اليمين ومع السلامة أنت وهو.

- والله بعض الناس الفقر لها نعمة.

- صلوا على النبي.

- عليه الصلاة والسلام.

أنا من النوع الذي أستيقظ مبكرا، أقضي مصالحي وأرجع. قد يصادف أن يأتيك مشوار لا تستطيع أن تتأخر عليه. إن سمعت مثلا بِرَجُلٍ له عليك واجب، أو أنه ليس له عليك واجب وابن عمه له عليك واجب، أتستطيع أن تتأخر

ولا تذهب إليه؟ قال لك جماعة تعال معنا للعزاء في الجهة "الفلانية"، هل تستطيع التأخر عنهم؟ كنتُ ذات مرة في السوق وقالوا هناك جنازة. والله العظيم تركتُ الحمارَ في السوق وذهبت إلى "الحلفاية" في آخر جهينة. قابلني مرة "النُّصُّ" قال لي فلان مات، كان يلف بالميكروفون على السيارة، قلت له:

- وصلت بالميكروفون إلى أين؟

- إلى ترعة البير.

- لماذا يا أبا العم؟ عندنا حوالي 15 بيتا شرقا، لو ذهبت من هذا الطريق أو الطريق البحري سيعلمون.

لن يقولوا:

- الجماعة لم يبلغهم الخبر

سيقولون:

- لا يعرفون الواجب.

طبعا لازم تضع في بالك أي كلام يمكن أن يقال وتحتاط له.

- هاتي ما عندك:

- يجلس عند المَزْيَرَة، على الترعة، في السوق القديم، على الأقل التليفزيون يجعله يظل في البيت بدلا من أن يحوس في الخارج ولا ندري عنه شيئا.

- ليست مشكلة أن يجلس أمام التليفزيون، لكن هل ذلك مبرر لأن يضرب إخوته وأخواته على الدوام؟

من منكم يتحمَّل أن يقولوا له على الدوام:

- أبعد ابنك عن هذا، أبعده عن ذاك، ابنك...؟

أنا مخي بلا مؤاخذة يَنْبُشُ بداخله عفريتٌ. والله العظيم لولا حرارة الجو ولولا أن وراءكم مشوارا، لأخذتكم إلى هناك. لدي فدانٌ ونصفٌ، اشتريتُ لهم بـ 5000 جنيه سباخا ومازالت الأرض غير مستوية. لا أستطيعُ أن أُحضر لودرا وبعد أن يسوِّي لي الأرضَ أقول له:

- تتبقى لك الفلوس.

والله العظيم لودر أنهى الشغلَ عندي الساعة التاسعة، يوم سبت كما اليوم. لا تنظر إلى اللودرات من الخارج. الذي بالبيوت يعلم به ربنا. يتحدث الناس عن بيت عبد الجبار، هذا مجرد اسم من الخارج، 4 لوادر، 8 عربات قلَّابات، 3 عربات ملاكي. لكن والله العظيم لو عرضوهم للبيع الآن لن يسددوا ما عليهم من ديون. لو جاء واحدٌ منهم واشتغل عندك "شغلانة" بألفين أو ثلاثة، وأعطيته ألفا ونصفا، هل ستطوّحه بالباقي؟ طبعا لا. افترض جاءك عند البيت. في أول مرة سيرسل لك طفلا يقول لك:

- عمي يسلّم عليك.

لا توجد بينك وبينه جيرة ولا مصاهرة ولا شركة ولا معاملة. لا يوجد بينكما سوى هذا الموضوع. من يميّز يفهم. سألت ولدا من العاملين على لودر منهم:

- ما بال سيارة "الجماعة" لا تظهر هذه الأيام؟

- والله يا عم جمال السيارة في الورشة، يشدون "عفشتها"، عمي يبحث عن ألف جنيه ليخرجها من الورشة.

لا تحتاج عشرين ألفا، تحتاج فقط ألفا واحدا، هل أظل أنا صامتا كمن لا يميِّزُ ولا أُرسل له باقي حسابه؟ لماذا أعطانا ربنا العقل أصلا؟ والله العظيم لما فرغتُ من الشغل الساعة التاسعة ليلا، كان قد اشتغل في غيطي 30 ساعة بثلاثة آلاف جنيه، كان قد أخذ منها ألفا ونصفا، وبقي له ألف ونصف، والله دون أن أغسل وجهي، إن لم يكن موجودا سأنتظره عند بيته، وجدته جالسا ينبش في التراب بعود حطب أمام بيته، ترى عربات ولوادر ودِكَكًا وزحمة و"أرجل الدكك"[7] بالأكوام. أتدري عندما ذهبت؟

- الابن الذي يذهب يأتي بدلا منه.

[7] رِجْل الدكة أي الرجل الذي ليست له كلمه أو اعتبار بين الناس وتجده يجلس مع أكابر ليتودد إليهم أو يجد له منفعة من وراء جلوسه معهم. والمصطلح مأخوذ من أن الدكة لها أربع أرجل، وبالتالي فأن الرجل الواحدة ليست لها فائدة في حد ذاتها، وإنما تكمل الأرجل الأخرى.

- هل تريد أن يكون مثل عمه محمد؟ أطبقوا عليه جميعا وقتلوه، لا أحب أن يكون مصيره كذلك.

- أتريدين أن تعملي من محمد مثلا أعلى؟

- أقول له أمامه سنة في الدبلوم، وسنة ونصف بالجيش، وإن نفع في شغل الغيط نفع، وإن لم ينفع يبحث له عن شغل في أي مكان، كي لا يكون له ذنب في رقابنا بعد ذلك. عليهم أن يحتملوه السنتين والنصف.

- وهل تَحَمُّلُه يعني تركَه يضربُ العيالَ.

تخيَّل أن تكون جالسا مع رجل، رجل عادي، وجاءك أحد من العيال يقول لك:

- حُوُشْ حمادة عند الموتور غربا.

هل تستطيع أن تفكر بعيدا عن العيال مادامت عندك حالة ذعر؟ وأنا لو كنت أزور رجلا مريضا أو أدفن أحدا أو أرى رجلا أكله القطار:

- خذه معك.

- ماذا أفعل بحمادة معي؟ لست بفارغ لكِ أنا. مخي به ألف عفريت ينبشون.

- صلوا على النبي.

- عليه الصلاة والسلام.

انظر يا عبده، والله الواحد أحيانا يدوخ بحثا عن 200 جنيه. والله العظيم يودّ لو يشقّ الأرضَ ليجدها، ولا يستطيع شيئا. المليح الذي يستطيع أن يقضي مصلحتك لا يملك شيئا. وقليل الأصل لا يعطيك شيئا. يجيء قارئ عدّاد النور وعندما أبصر الفواتير في يده، أنط على الجهة الأخرى وأفرُّ.

- كل يوم حمادة يريد أن يذهب إلى جهينة.

- هو الذي يعطيه الفلوس. عندما يعطيه فلوسا ليشتري شيئا، لا يُرجع له "الفكّة".

أضع الفلوس في هذا الصندوق وعندما أمشي يدخل هو المنضرة ويأخذ منها. كما أنني لا أستطيع أن أزنِّق عليه تماما. مثلا أول أمس أعطيته عشرة جنيهات ليشتري علبة سجائر، كان يريد أن يَغْمُرَ السبعة والنصف في جيبه. ليس معتادا منه أن يطيعك ويذهب لشراء علبة السجائر. لم أتكلم في المساء. وفي الصباح كنت ذاهبا لجهينة وقلت له:

- هات السبعة والنصف.

كأني لم أكلمه. ثم قال:

- لا.

- السبعة جنيهات والنصف يأتون حالا!

والله العظيم ليست مشكلة السبعة والنصف. المهم جاء بهم قالبا وجهه. يلم الحديد والكراكيب والجراكن من البيت، والله العظيم يأخذ الجركن الذي أشتريه بجنيهين ليبيعه بنصف جنيه. أهذا حكي يا أبا العم؟ القيراط الذي باعه أخي منذ سنتين بخمسة آلاف يباع الآن بخمسين.

ـ أنت لم تَبِعْ.

ـ وهل أنا عبيط حتى أبيع أرضي وأصرفها على مزاجي؟

ـ كُلُّكَ عقل يا أبا حمادة.

ـ هذه الأرض ليست لي. لهم ولأولادهم من بعدي.

عندما يكبر الولد وكلما يرى بنتا في السوق القديم يُجَحِّرُ بعينيه، شباب تالف.

ـ ألم ترَ ذلك الذي قطعوا رقبته وألقوه في الجبانة؟

ـ أخذ بنتا من بنات مدرسة الزراعة في الربع نقل وطلع بها على الجبل؟

ـ ليستر الله على ولايانا.

ـ الدنيا مليئة يا عم.

والله العظيم مجموعة عيال. مثلا ولد أحمد الكبير أمه مُقرِّطة عليه. عندما ملَّ تقريطها أخذ خروفَ علفٍ من البيت وباعه.

- هؤلاء العيال بلا مؤاخذة يشتغلون شَمًّا وسرقةَ في جهينة.

- يا عم تربية حرام وهذا طبيعي.

كما أنك اليوم لا تضمن، لو وجدتَ لصا يسرقُ زجاجة فارغة أمام بيتك ستمسكه وتقتله، ويبدأ جَرُّ المشاكلِ. تعملُ مع العيل المستحيلَ يا صلاح، ماذا تفعل معه أيضا؟

- قومي اعملي كوبين[8] شاي.

- عندنا ضيوف شرقا.

- فلينتظر ضيوفُكم قليلا. نشرب الشاي أولا ثم نشرّق سويا.

- كانت يضرب بها المثل في "الجدعنة" والعقل والصبر.

- كان هذا في الماضي. والله تجيء ساعة "تنرفزني" فيها "نرفزة" غريبة الشكل.

[8] تستخدم صيغة المثنى في جهينة للدلالة على الجمع.

- منذ أن جاء عبد الواحد الصغير طبعا.

- وهل ينقصها العيال؟

هناك رجل يجد من يسنده ورجل لا يجد. يعني عندما قال الدكتور عدلي:

- حكايتكم حكاية كلابِيَّةٌ جدا لأنكم لم تنصبوا "فِراشًا" لعمِّكم

هذا الكلام ضايقني كثيرا. الحاج كامل حسبها جيدا وقال له:

- يا دكتور أنت لا تعيش معنا في جهينة. كان المرحوم لا يحب أن يزوره أحد، زوجته ليست من البلد، والواحد منا لا يحب أن يذهب إلى مكان لا يرحب به فيه أحد، كان يكتفي بالاتصال كل شهر. ألم يكن من المفروض عليه أن يحسبها جيدا؟ إن كان فيه عقل لفعل.

هل معقول الآن أن يكون جميع أخواتك مثل بعضهن البعض؟ وإخوتك مثل بعضهم البعض؟ اشربوا الشاي. يا عم

هذا لا ينفع معه ناعم أو خشن. كما أنك تعمل طوال اليوم في الغيط، وعندما تجيء مساء تريد أن تأكل لقمة وتريح بالك، أليس من حقك أن تستريح أم أنك لست من بني آدم؟ الرجل يشقى طوال النهار والولد لا يستر عليك. كان عبده إلى أن تزوج ينام في بيتكم، أكنت تقول له: لا تنم؟ الرجل الذي يشقى طوال النهار ويأتي البيت بالليل، هل يُنْتَظر منه أن يحرس هذا ويحرس ذلك؟ من المفترض أن يحل حمادة محلي في كل شيء.

- وأنا أقول له من المفروض أن يوقظه ويأخذه معه. طبعا لا يُعقَل أن يأخذه معه إلى كل مكان. أنا أتكلم عن غرب، يأخذه معه إلى الغيط غربا.

أتسأل عن صناديق الذخيرة هذه؟ والله يا أبا العم نضع فيها الملابس. إذا كنت تريدها خذها وضع فيها ملابسك واترك دواليبكم فارغة من دون ملابس! هيا نجلس في الهواء بالخارج إلى أن يُنزل مصطفى الخشب الذي تريدونه للشيشة من على السطح. هاتي يا بنت الحصيرة الحمراء هذه ليجلس

عليها أخوالك. اسكت يا عم. على العموم الله يبارك فيكم. والله هذا السور كلفني السَّقَطَ واللَّقَطَ. ربنا يكون في عون الجميع. طبعا سترني من الغرب. أتعرف هذا الباب؟ والله العظيم كلَّفني 1200 جنيه. لكن الحمد لله لممتُ غنماتي وسترتُ نفسي، وها أنا لست مكشوفا. وحتى لو نمت في الأرض هنا سأكون مستريح البال. وها أنا زرعت هذه الأشجار داخل السور. وعندما تكبر سنفرش الحصيرة تحتها ونجلس في عز الظهر. كما أن العيال سيجدون فاكهة يأكلونها.

- أنا لم أحكِ يا أخي. لكن عندما يضربه سيبات خارج البيت. والواحدُ منا لا يهون عليه. سأشغّل التليفزيون. لم يتبقَ سوى شهر ونصف على بداية الدراسة وسيُغْلَقُ التليفزيونُ أصلا.

- وشغل الغيط؟

- معك في أن حمادة يجب أن ينام مبكرا. إن لم يجلس أمام التليفزيون سيجلس بالخارج.

- اتركها يا أخي.

- عقلها في رأسها، وإن لم تحافظ على بيتها، من سيحافظ عليه لها؟

خريف 2007

وحدك في فلك نور

أفكار تستدرجك إلى زخم الحياة وتسخر، ثم تردَّك إلى سكونك، إلى صحرائك، إلى تصحُّرك، إلى بيدائك، إلى حركتك المتواصلة التي لا تجد فيها وقتا لتتعرف على الوجوه، على الحياة، أفكار تمنِّيك بالسكون ولو للحظات، سكون غير سكونك، جمود غير جمودك، فالأشجار التي تزرعها على قارعة الطرق أهي معالم لتستضيء بها، أنت أم هم؟ ولِمَ لا تعاود النظر إلى ما فات؟ لِمَ لا تتقهقر لبعض الوقت كي تلملم ملامحَ كنت تألفها، وكانت تألفك؟ تلملمها إن شئتَ أو حتى تزرعها معالم على طريق تحنّ أنت إليه، بين الحين والحين تحنّ؛ لِمَ لا تتراجع؟ تفر من صحرائك الخضراء إلى ما كان صحراء راملة، صحراء رملية تبتسم فيها لنبتات صغيرة وسط الرمال، تحاول أن تلفت الانتباه إلى خضرتها البادية، خضرتها الرضيعة التي تقول:

ـ ها أنا هنا، أنبتُ في الصحراء، ها أنا هنا أصنع المعجزات، وأُخرِج من تلك الرمال، من ذلك الجفاف، حياةً...

لِمَ لا تخرج من فلكك الذي تدور فيه؟ أنت الدائر والدائرة، أنت المحور والفلك، تدور حول نفسك، أو تدور نفسك حولك، لِمَ لا تخرج لتعانق الأفلاك؟ لِمَ لا تخرج لتلتحم بالظلام بين الفضاءات؟ لِمَ لا تترك معالمك التي زرعتها على قارعة الطرق مرشدا، وتسترد جذورك في تلك النبتات الصحراوية التي كنت تبتسم لها وأنت تنتقل عبر ذلك الطريق الصحراوي؟ شرقيا كان أم غربيا، تبتسم لهذي النبتات، أو تبتسم هي لك، كنت تراها حياة، وكانت تراك حياة، لكن خطواتك أخذتك بعيدا إلى طُرُقٍ، لكن عجلات رأسك ألقت بك في البحور، نقلتك بين المقامات، بين بحور الذهن، بين الحالات، وما لك حالة ترتضيك، ما لك أن ترتضي حالة، وتظل هكذا متنقلا حائرا لا تعرف كيف تتوقف، لا تعرف كيف تسكن، لا تعرف سوى شيءٍ واحدٍ،

الحركة ثم الحركة ثم الحركة، الصعود ثم الصعود ثم الصعود، ولكنك وحيد في الأفق، أنت وحيد في الأفق، تَراكَ عاليا، تَراكَ ناهضا، تَراكَ متقدما، لكنك وحدك، حتى الأفلاك الصغيرة في بيتك أنت بعيد عنها، الأفلاك الصغيرة من حولك، الأفلاك التي ربما أنت الذي تراها صغيرة، وربما لا تراك هي في مجالها، ربما لا تراك في أفقها، فصعودك أبعدك خارج نطاق الجاذبية، أنت هناك، لا لك أن يجذبك أحد، لا لك أن تنجذب إلى أحد، فارقت الجاذبية، فارقت الانبهار، فارقت الدهشة، كل شيء عادي في نظرك، كل شيء عادي يا فتى، وأنت الذي كنت تمل الاعتياد صرتَ عاديا في نظرك، لا لك أن تفرح، فالفرح لا يدعو للفرح؛ لا لك أن تحزن، لا شيء يدعو للحزن؛ لا لك أن تتألم، لا شيء يدعو للألم، الألم عادي، الفرح عادي، الحزن عادي، الجنس عادي، حتى تطلعاتك عادية، ما معنى أن تنشر أبحاثا؟ تنشر قصصا؟ تنشر أشعارا؟ تنشر نقدا؟ نشر على نشر على نشر، من ذا الذي يقرأ في هذي البلاد؟ هل يُعقَلُ أن تنفق كل أموال

غربتك على نشر كتبك؟ وما المردود؟ ما الذي سيحدث؟ لن يتغير شيء؟ سيظل الجميع كما هم؟ تفكيرهم كما هو؟ بلدك كما هي؟ كرامتك مفقودة في الداخل والخارج كما هي؟ وما الذي سيفيدك لو كسبت كل الناشرين، وخسرت أنت الذي تبحث عنه؟ ناشرون كأنهم الخراب، كأنهم رعاة إعلاميون لمنتخب كرة قدم، يهدمونك ليبنوا من أموالك بيوتا، أو لا يبنوا شيئا، فلا أحد يقرأ، لا أحد سيتغير، ماذا لو كسبت الكل وخسرتَكَ؟ خسرت "أنت" الذي كنت تعتز به؟ أين جموحك؟ أين تهورك؟ أين طيشك؟ أين تعصبك؟ أين حزنك؟ أين فرحك؟ أين انفعالك؟ أين عنفك؟ أين جرأتك؟ لا تتجرأ إلا على الأفكار، لا تتجرأ إلا على الحروف، تطوِّعها لهواك كيفما شئت، تتجبر عليها وتقودها كتابة وترجمة، تسخِّرها ، ها أنت تستخدم معرفتك في الاستعباد، تسخِّر وعيك للاستعباد، تستعبد الكلماتِ، تستعبد الحروفَ، تستعبد اللغة ذاتها، ربما تستعبد نفسك، مادمت أنت تستعبد كل شيء هكذا، هل فكرت في أنك ربما كنت تستعبد الأشخاص، ربما

كنت تُشَيِّيءُ الأشخاصَ حولك، ولا تراهم "شيئا"، لا تراهم ذاتا، ألم تكن وسطا؟ بك غباء؟ بك ذكاء؟ بك ظلام؟ بك نور؟ لِمَ تركت الظلام؟ تركت الغباء؟ للأبد تركتهما، ومشيت على طريق النور، لا ترى سوى النور مرشدا، لا ترى سوى النور إماما، وها أنت لا تجد مصلين، أنت تَؤُمُّ نفسك، أو نفسك تَؤُمُّكَ، وهل كانت غير أمَّارة بالسوء؟ وحدك على طريق النور، وحدك النور، ماذا يجديك النور وأنت وحدك على ذلك الدرب الشاسع الذي لا حدود له؟ أنت وحدك على درب لا حدود له، فقط درجات لا بد أن تصعدها، لا لك أن تنْزل، لا لك أن تتراجع، ويا حسرتا على درب كان بإمكانك أن تتقهقر! يا ويلتا على درب يدفعك دائما للأمام على طريق النور! تجرَّعْ وحدتك، تجرَّعْ موتك، تجرَّعْ نورك الذي لا يكشف سوى عن ظلام تحنُّ إليه، لا يكشف إلا عن ظلام يحنُّ إليك، كل الظلمات منتشية، كل الظلمات تنتشي بدورانها حول بعضها، وأنت تدور حول نفسك، أنت تدور حول النور، فلينفعك نورك!

ومن قال إني ها هنا أرتجي النور؟ أنا أسيرُ دربِه، لا فكاك لي منه، لا فكاك له مني، لا لي أن أخرج عليه، ولا له أن يخرج مني، كما أنني أنا الذي أستعبده داخلي، أنا الذي أتجرع سكرات النور وحدي، أنا فديتكم جميعا بالنور، أنا الذي فديتكم جميعا، وتجرَّعتُ النور وحدي، دون أن أطلقه عليكم، سيفسد عليكم بهجة تنعمون بها، أنا الذي بإمكاني أن أطلقه عليكم، ويا ويلكم لو انطلق، يا ويلكم لو هجم النور عليكم، لن تبصروا بهجة في أي شيء، سيكون كل شيء عاديا، عاديا لحد الشطط، وساعتها بإمكاني أن أرديكم مثلي نورانيين، لا لكم أن تبتهجوا، لا لكم أن تحزنوا، ساعتها أرديكم مثلي، ولتهنئوا بنور تتطلعون إليه.

نوفمبر 2007

خطيئة النور

إلى متى؟ إلى متى يحتل النور قلبي؟ لا يترك فيه رقعة لأحد، ينشر جنوده في البراري، ينشر إخوانه في أفق البصيرة؟ إلى متى تحتلين بنورك قلبي؟ إلى متى تحتلينني ببهائك، بنورانيتك، بشفافيتك، بسماويتك؟ إلى متى لا أنتِ هنا، لا أنتِ هناك، لا أنت في كل مكان؟ لا أنت في أي مكان؟ لكنك تحتلين العقل والقلب والبصيرة، لا تتركين لي فرصة للتدبر، فرصة للحم والدم، ألتهمه أو يلتهمني، أمتصه أو يمتصني، نلتحم سويا، لا تتركين لي فرصة، لا تتركين مجالا لمقاومي النور، مجالا لتَحَقُّقِ وعيي بزيفك، أعرف أنك لا شيء، لا هنا، لا هناك، نور همّ بي ذات صباح أو ذات مساء، فارتسمتِ في الأفق، في أفق الروح، في أفق القلب، في أفق الرؤى، ارتسمتِ ونشرتِ جنودك في كل الأرجاء، لا تسمحين لأحد بالدخول، لا تعترفين بجوازات السفر، أدرك أنك وهم، وأقوّي إدراكي، علّي أبصر ما في اللحم والدم من مباهج، علّي أغتصب مكانا لأحد غيرك، يهنأ

بي، أهنأ به، لكنك لا تعرفين سوى نفسك، لا تعرفين سوى النور وكفى، لا تعترفين بحق أحد في اللجوء إلى قلبك، لا تعترفين بحق الإقامة، ولا حتى بحق الانتساب، لا تعترفين لأحد بشيء، وتكتفين بذاتك متربعة على كل النواصي، متربعة على قلوب راودها حلم ذات يوم، راودها حلم بالالتحام، بالتوحد، بالحميمية، لا، لم يراودها الحلم، كلمات هنا وهناك، في بطون الكتب، ربما كنتِ أنتِ التي نثرتِها هنا وهناك، تصطادين بها الأغراء، تصطادين بها الجهلاء، تصطادين بها الحالمين، تصطادين بها السذج أمثالي، كي تنصبي شباكك حولي، وأهيم بك، أتحلق حول مقامك، أتحلق حول مقام لا أراه، مقام ربما أحس به، ربما أتخيله، ربما أتوهمه، لكنني لم ألمسة يوما، لن ألمسه يوما، فقط أتحلق، أمارس طقوس شعيرة يومية، لا تدع مناسكها وقتا لشعائر أخرى، وقتا لأحد آخر، وأظل أنا هكذا أحلم بالبوار، أحلم بالصحراء، أحلم بالطين، أحلم بالظلام، ولكن نوركِ يعمي البصيرة، لا نبتات تبين في الأفق، مع أن الأفق مليء بكل

النبتات، وكل الأشجار، مليء بكل شيء سواك، وكأن نوركِ يلف حولها غشاء يدثرها، فيعميني ولا أبصر شيئا...

من أنتِ؟ من أنا؟ يقولون تفاحة؟ يقولون جسدا حميما، يقولون معرفة، يقولون وعيا، يقولون إحساسا بالزمن، يقولون، ماذا يقولون؟ وأنا ما عدت أفقه سوى نورٍ لكِ، ما عدت أفقه سوى نورانيتك، فقدتُ أبجدية الظلام، ضيعتُ أبجدية الجسد، ضيعتُ حروف التفاهة، فلا أنا أتواصل، لا أُحِسُّ بلغة أحد، لا يُسْعِدُني أحد، لا أُسْعِدُ أحدا، من أنتِ؟ من أنا؟ من ذلك المن؟ أنا لا هنا، ولا معكِ، أنتِ لا هنا، وربما لا هناك، حتى لو أنكِ هناك، أنا هنا، أنا هناك، ومالي بهناككِ؟ يقولون، لا، لا أحد يقول شيئا، عندما أقرأ التاريخ، لا احتلال يدوم، أنت تحتلين قلبي، تحتلين القلب، أو أنا الذي توهمتك وزرعتك فيه، أنا الذي توهمتك، أنا الذي زرعتك، أنا الذي غرستكِ، أنا الذي ضربت بجذورك في أعماقي، ما عدتُ، وما أنا بقادر على أن أحيي القلب، ما أنا بقادر على أن أحيي الموتى، الموتى الذين لا يحسون بالأحياء حولهم، الموتى

الذين وهبوكِ حياة وحيدة كانت لهم، الموتى الذي فضَّلوكِ على أنفسهم، وصنعوا من وهمكِ حياة، وأماتوا أنفسهم، لكنهم ليسوا بشهداء، فما هم إلا إرهابيون، ما أنا إلا إرهابي اجتثثت حياتي لكي أهبكِ إياها، لكي أصنعكِ على عيني، في الأحلام، في الخيالات، في الرؤى، على امتداد البصيرة، أزرعكِ، أرشقكِ في الخلايا، أرشقكِ في الأوردة، أسكبكِ في الأوردة، فتحتلين كل الخلايا، أو أنكِ طمعتِ عندما أسكنتُكِ قلبي، فبدأتِ في التوسع، فراودتكِ نزعة الاستعمار، راودكِ حب التملك، واستحوذتِ على كل شيء، حتى عيني ما عدتُ أرى بها، ما عدتُ أرى بها البشر الطيبين حولي، ما عدتُ أحس بدردشتهم، بكلامهم، بكلامهم المنساب بعفوية، وربما لسد الفراغ، ربما للتواصل، ربما كان الكلام هدفا في حد ذاته...

لكنَكَ لا تعرفَ الهدفَ الذي في حد ذاته، تعرف أن لكل شيء غاية، ولكل غاية غاية أكبر منها، وهكذا، أعرفُ، أو أنكَ تصر أن تعرف، أو أنك تصر أن ترى الأمر هكذا، ما أنتَ إلا وهمٌ صنعته أنتَ بيديك، صنعته تلك التي تحتلك

بيديها، صنعته تلك الكتب، تلك الأحاسيس، تلك الرؤى، التي تراودك، التي تراودها، أين أنتَ؟ حتى الدم الذي كان يثور في عروقك، يتمرد، ينتفض، ما عاد لك، وما عدتَ ثوريا، أو منتفضا، أو متمردا، أو هائجا، أو همجيا، أو بربريا، أو ذلك الإنسان الذي كنتَه، ما عدتَ ذلك الإنسان، ما عدتَ إنسانا، ما أنتَ إلا فكرة، ما أنتَ إلا فكرة تتحرك في هيئة جسد، كتلك الفكرة التي غرستَها في قلبك، فاحتلته واحتلتْ كل شيء، روحٌ وهبتَها لها، هي لا شيء، أين روحك إذن؟ لو كنتَ أنت الآن بلا روح، والتي أهديتها روحك لا شيء، لا توجد، أين إذن روحكَ؟ هل تسرَّبت إلى فضاء الكون؟ وصارت صدى يتردد في أغنياتك؟ يكمن خلف قصائدك؟ دون أن يبين؟ دون أن تجده؟ ها أنت تحنَّ مرة أخرى، حنين يراودك، حنين يواسيك، حنين يؤرقك، لكنك أنت الذي قتلت روحك التي تحنُّ أنتَ الآن إليها، ومن قتل روحه قتل جسده، لا تستغرب أنك لا تحس به الآن، لا تحس بشيء، لا تستمتع بشيء، لا تبتهج بشيء، كل الأمور سواء، مادام جسدك لا ينبض، كيف

تريد إذن أن تحس؟ كيف تريد أنت أن تعيش كما يعيشون؟ أن تحس كما يحسون؟ أن تبتهج بكل شيء؟ لكل شيء؟ لأتفه الأسباب؟ كما يبتهجون؟ ما أنتَ مثلهم، كنتَ مثلهم، وبيدكَ زرعت وهمكَ، بيدك صنعتَ وهمك، صنعته على عينك، وعليك أن تتحمل ما صرت إليه، عليك أن تتحمل نتيجة ما جنته أحلامك، ما خطَّته بصيرتك التي تشعَّبت، التي امتدت إلى كل خيوط الكون، فربطت بينها ولم تستطع الخروج من الشرنقة التي تتسع داخلها تلك الخيوط، لم تستطع أن تعود أرضيا، ولم تستطع أن تصعد، أنت مفارقة أرضية، مغالطة أرضية، وصعودك الآن مهزلة، ما حان أوان صعودك، وحين يحين لن تكون في حاجة للأرض، أنت مغالطة تاريخية، مغالطة أرضية، وعليك أن تتجرع سكرات التَّوَزُّعِ، أن تتجرع آلام التمزق، أن تتجرع جسدا بلا روح، أو روحا زرعتها في قلبك بلا جسد، عليك أن تحصدَ ما زرعته في قلبك، من روح بلا جسد، أنت الذي صنعت الخطيئة، فها أنت تجني سيئات ما صنعته كل يوم، ها أنت

تكفِّر عن سيئات ما صنعتَه من مغالطات كل يوم، تكفِّر وما هناك أحد يتحمل خطاياك، ما هناك أحد يتحمل خطايا أحد، عليك أن تتحمل ما كسبت، عليك أن تتجرع آثار توهمك...

ديسمبر 2007

عن المؤلف

ولد جمال محمد عبد الرؤوف محمد الجزيري في 2 أغسطس 1973 بجهينة، محافظة سوهاج، مصر. كاتب قصة وشاعر وروائي ومترجم وكاتب مسرح وناقد ودكتور جامعي. بدأ مشواره الأدبي في عام 1991. تخرج في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب بسوهاج 1995. حصل على الماجستير من قسم اللغة الإنجليزية بآداب القاهرة 1998عن رسالة بعنوان "تحولات المنظور في شعر روى فولر1936 – 1961"، ثم على الدكتوراه من قسم اللغة الإنجليزية بآداب عين شمس عام 2002 عن رسالة بعنوان "جوانب السرد في شعر روجر ماكجوف 1967 – 1987". يعمل منذ عام 1999 بقسم اللغة الإنجليزية بكلية التربية بالسويس، جامعة السويس بمصر وانتقل بعدها ليعمل بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في نفس الجامعة، ويعمل حاليا بقسم اللغات والترجمة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة طيبة بالمدينة المنورة. وقام في يناير 2014 بتأسيس مجموعة سنا الومضة القصصية على الفيسبوك بالاشتراك مع الأستاذ عصام الشريف (مصر) والأستاذ عباس طمبل (السودان)، وهي مجموعة تعني بشئون الومضة القصصية نظريا وتطبيقيا ونقدا وإبداعا. كما قام في شهر مايو 2014 بتأسيس دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني. وقام في أكتوبر 2015 بتأسيس دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني مع الأديب محمود الرجبي.

الاسم بالكامل: جمال محمد عبد الرؤوف محمد

اسم الشهرة والنشر: جمال الجزيري

الجنسية: مصري

المهنة: دكتور جامعي، تخصص الأدب الإنجليزي

البريد الإلكتروني: elgezeery@gmail.com

جـوائــز

* المركز الأول في القصة القصيرة من جامعة جنوب الوادي 1995

فهرس